في الطبوغرافيا الاجتماعية

القاهرة

المدينة العتيقة وما آلت إليه

الأستاذ الدكتور
السيد حنفي عوض
أستاذ علم الاجتماع
جامعة الزقازيق

في الطبوغرافيا الاجتماعية

القاهرة
المدنية العتيقة وما آلت إليه

الأستاذ الدكتور

السيد حنفي عوض

أستاذ علم الاجتماع — جامعة الزقازيق

٢٠١١



رقم الإيداع : ٢٢٥٨٥ / ٢٠١٠
الترقيم الدولي : ٩٧٧-٤٥٨-٠٤٩-٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

القاهرة هي المدينة العاصمة لمصر، وتعد القاهرة نموذجا فريدا للمدينة الإسلامية بتاريخها ، وموقعها الجغرافي ، والمدينة العاصمة عند الجغرافيين تتصف بمؤشرات عددية من سكان ، ومحاكم قضائية ، وحاكم مقيم فيها ، ولها مواردها في الإنفاق على الخدمات العامة ، وهى مركز السلطة على اتساع محيطها الجغرافي يعرفها الجغرافيون العرب ، وبانها الحاضرة Metropolitan التي يقيم فيها رؤساء السلطة الإدارية (الولى: ص ١٢٩).

لقد حفلت القاهرة عبر تاريخها بتغيرات في طبوغرافيتها، وموضعها ، وأزمات تاريخية على المدى الطويل منذ نشأتها ، جمعت بين المادية والروحية معا ، وهى تاريخ إنساني للمكان بعمرانه وبشموله الثقافي ، فلم تكن منذ هذه النشأة بمعزل عن الهزات التاريخية التي عبرتها إن لم تكن في قلبها ، فكل أزمة تاريخية كانت تحمل في طياتها بقدر ما تبشر به من غلبة عسكرية وحضارية عناصر بشرية غريبة عليها ، وصياغة جديدة في إدارتها ، وفى كل هذه المتغيرات كانت القاهرة وكانها تعيد بنائها الإنساني ، وتوحد قوتها من خلاله ، مما يوفر لها إمكانية الاستمرار والبقاء.

لقد ساعدت حدودها الجغرافية وطبيعة مكانها أن تكون مفتاحا للصراع التاريخي بين الفاطميين والعباسيين ، ثم المماليك والعثمانيين ، لتأكيد الهيمنة السياسية وإخضاعها للتبعية الثقافية العقائدية .

لعل من الضروري هنا أن نذكر أن ما ندرسه الآن ليس تاريخ المدينة منذ نشأتها، وإنما التاريخ الحضاري كما عاشته ، وكما نفهمه كاسلوب للحياة ، وما فيها من استمرار للثقافة التاريخية أو الانقطاع عنها ، واعتقد أنه لابد من الفصل بين مرحلتين أساسيتين على الأقل منذ

نشاتها الأولى في العصر الفاطمي كعاصمة إلى سقوط الدولة العثمانية ، والمرحلة الثانية هي مرحلة الهيمنة الفرنسية والتحول بها منذ عهد محمد إلى التحديث العمراني .

إن كل التطورات والصراعات والمشكلات التي تعرضت لها المدينة للاحتفاظ بالذاتية التاريخية مرتبطة بالمكان ، ويدفعنا المكان هنا إلى دراسة ما فرض عليه من تغيرات على أرضها من ردم برك ، وإزالة تلال ، وشق مجارى مائية ، وهدم بناء وتخطيط للعمران ، وكلها مرتبطة بحياة الإنسان ودوره المؤثر في بناء المدينة ، وإذا كان لابد من تحديد القصد من هذه الدراسة فإن هذا لا يعنى البحث في نظرية كلاسيكية في دراسة المدن ، وإنما محاولة التحرر من شرنقتها لتفسير التطورات والصراعات التي أدت إلى القطيعة الحضارية في تاريخ تطور مدينة القاهرة ، وهى نموذج تنفرد به بين مدن دول العالم .

هذه القطيعة هي التي تدفعنا إلى الحديث عن التراث التاريخي للعاصمة ، وهو لا يمكن فهمه إلا إذا عرفنا أسبابه ، أي فهم القاعدة السببية بما فيها من وعى ذاتي بهذا التاريخ، وهذا الوعي هو بداية وعى أمة ، إننا نعيش حياتنا الطبيعية في شوارع القاهرة وميادينها وأزقتها ، وكل منها يحمل اسما أو أثرا هو في الحقيقة علامة في ذاكرة تاريخها ، إن غياب الوعي بهذه الحقيقة هو علامة دامغة في صيرورة ثقافتنا ، والتناقض بين ما نشاهده وما لا نذكره ، إن ما نشاهده اليوم حولنا إنما هو المكان بآثاره وبمتغيراته العمرانية وأحداثه الإنسانية ، وما لا نشاهده هو بمثابة ملامح في ذاكرة التاريخ دون أثر ، وفى كلا الحالتين تاريخ لطبوغرافية المكان والزمان والإنسان .

وبالتالي يمكن أن نضع دراسة القاهرة في ضوء هذه المجالات العلمية الثلاث ، كما يمكن اختزالها في سؤال :

أيهما أكثر هيمنة على الآخر الطبوغرافيا أم الإنسان ، وفى ضوء

هذا السؤال نحاول أن نلتمس فيه ومنه الإجابة على ما كانت عليه طبوغرافية المدينة والتحولات على أرضها ، وما اقترنت به من تغيرات اجتماعية وسياسية وثقافية.

وليس من المقبول في أبجديات العلم الإجابة على هذا السؤال دون التدليل ، أو التفسير في متغيرات المكان والزمان ، والظواهر الاجتماعية للإنسان . فالطبوغرافيا الاجتماعية في مفهومها: هي دلالة الملامح العامة لسطح الأرض طبيعية كانت أو مصنوعة وعلاقتهما بالإنسان ، إذا نحن امام ثنائية: الأولى طبيعية ترتبط بالمكان ، والثانية ترتبط بالسلوك الاجتماعي المتماسك عضوياً والمحدد الأهداف ، ومهما يكن من أمر، فإن الاهتمام العلمي سواء في المجال الطبيعي والإنساني، هو مشروع إنساني قديم يقترن بوجود الإنسان وتشكيله لعالمه الخاص في محيط المكان ، ومن ثم يشترك البحث الطبيعي (الجغرافي) والبحث الاجتماعي (السوسيولوجي) في عنصرين أساسيين:

أولاً : الحاجة إلى الدافع إلى السيطرة على البيئة الطبيعية للمكان ، وهيمنة الإنسان عليها ليطوعها لحياته .

ثانياً :افتراض خضوع هذا المكان للتغير والتغيير الحضري بآثارهما الاجتماعية على عمرانه .

وللحقيقة فإن الإنسان التصق بالطبيعة الجغرافية ، إلا أنه استطاع أن ينفصل عنها عندما أقام في قلبها عالمه الخاص بقوانينه الخاصة التي انطلق منها في هيمنته على الطبوغرافيا نفسها ، وإخضاعها لعمرانه كاسلوب أساسي في حياته ، أو هي في نهاية الأمر تغيير في بناء المكان ووظائفه ، ولا يمكن لعملية التغيير أن تتحول ذاتياً ، وإنما بسلطة اتخاذ القرار والتوازن في عملية التغيير وقبوله.

ولعل الدلالة لفهم هذه الحقيقة حقيقة التغير والتغير فليس من

المتعذر أن نعثر على هذين العنصرين في وضع القاهرة من منظور تاريخي . كمدخل ديناميكي بنائي يكشف عن التغيرات في تاريخها الذي يمتد لأكثر من ألف عام . إذن فعملية التغيير في المكان هي فعل إنساني ، بما يفرضه على البيئة الطبيعية ، ولو أردنا فهم هذه المسالة لتطلب الأمر استعراضا تحليليا تاريخيا لمؤثرات التغيير ، وهى تأثيرات متضاربة الاتجاه في البناء العمراني للمدينة ، منها ما هو إيجابي ومنها ما هو سلبي ، والدليل على ذلك هو أننا نجد أن القاهرة العاصمة في تاريخها تحركت من مكانها بفعل الهيمنة السياسية وسلطة الحكام ، كما أنها التصقت بالسلطة في علاقة فارقة اشتملت ممارستها في عصور متعددة على نوازع العدل والبناء ، وفى عصور أخرى على البطش والتدمير ، وهى تأثيرات متضاربة الاتجاه في الحراك العمراني والسكاني في آن واحد.

لقد زخر التراث التاريخي بوصف ما كانت عليه المدينة العاصمة لمصر من ظواهر التغير في الطبوغرافيا الاجتماعية التي شهد تنقلا تاريخيا من الفسطاط ٦٤١م ، العسكر ٧٥١م ، القطائع ٨٦٨م ، الفاطمية ٩٦٩م ، الأيوبية ١١٧١م ، المملوكية ١٢٥٠م ، التركية ١٥٢٧م ، ثم بداية النهضة العلوية ١٨٠٥م.

ومن خلال هذه الفترات التاريخية المختلفة يمكن النظر إلى متغيرات موقع لعاصمة على أنها نتاج علاقات متشابكة في عواملها يمكن تناولها من أكثر من منظور في العلوم الاجتماعية : الجغرافيا ، والتاريخ، والسياسة ، والاجتماع ، والأنثروبولوجيا ومهما كانت محاولات تفسيرها، فيمكن أن تتفاوت فيما بينها نتيجة تراكمات من الملاحظات التي تخضع لمختلف التفسيرات المتفرقة المتباينة الأجزاء.

ومن ثم يمكن القول أن هذا التباين لا يشكل علاقة بين الظواهر الاجتماعية للمدينة كعلاقة آلية ميكانيكية وإنما المقصود العلاقة الديناميكية، أي عملية تحليل الظواهر التي تعطينا وجهات نظر متعددة

من الأجزاء المنفصلة جغرافيا والمتشابكة اجتماعيا ، وإذا أخذنا المنظور التفسيري على تجزئة الظواهر الاجتماعية للمكان فإننا لا نستطيع جمع شمله ثانية بشكل تكاملي .

وإذا كانت النظرة الشاملة ضرورية بالنسبة لتاريخ القاهرة المدينة العاصمة فنحن لا ننكر قيمة التحليل في تبسيط الظواهر وفهمها ،اي أننا في حاجة إلى جانب الأسلوب التحليلي إلى إطار نرد إليه العناصر التي حللناها ، وإلا فقدت هذه العناصر دلالتها وأهميتها المكونة لتفسير مجتمع المدينة .

ونستطيع أن نكسر الفجوة المصطنعة بين التفسيرات المتباينة للظواهر الطبوغرافية والتاريخية والسياسية من خلال المنهج التكاملي القادر على أن يكون هو الحاضن في تفسير حركة التغير الاجتماعي للمدينة ، ومن ثم تصبح قضية واحدة لديناميات المكان متكاملة للحركة التاريخية بطبيعة المجتمع وتفاعلاته ، فالمكان والمجتمع مفسران لبعضهما ، ومن ثم ننظر إليهما على المستوى ذاته من التبادل في دراسة البناء الاجتماعي للمدينة ،(Gould: p 15)

إن المضمون البنائي لمدينة القاهرة في العصور القديمة أو الحديثة هو المجتمع الذي تم تشكيله في قوالب جغرافية عبر السنين ، والمجتمع الذي تحول من مكان إلى مكان لم يكن استاتيكيا ، إنما هو دورة في حركة ديناميه مركبة تتضمن جدلية بين المجتمع والمكان ، ويكتسب المكان أهميته التاريخية من الطبيعة بكل جوانبها حتى أصبحت قوة منتجة للاستخدامات ، تبعاً للمساعدات المؤثرة إيجابياً أو سلبياً ، ولكي نقترب من تفسير هذه النقطة نجد عناصر طبيعية كالنهر والجبل ، والموارد الطبيعية تؤثر على الإنسان ، إلا أن قيمة أهميتها هو تاثير الإنسان عليها في استغلال وجودها ومواردها في التغيير ، ونقصد بالتغيير المتاح لها ليكتسب منها ما يدعم حياته وحضارته.

أستطيع أن أسلم بأن هذه الدراسة لها امتدادها التاريخي الزاخر بالقضايا والمشكلات التي ترتبط بالمكان والزمان والمجتمع، ومن ثم أجدها متشابكة بين العلوم الاجتماعية بتعدد التفسيرات حولها حسب الاتجاهات العلمية لأصحابها، ومن ثم كانت الدراسة تواجه القيود دون شك.

إن الطبيعة الشائكة للموضوع لم تكن سهلة واضحة في البداية ، فكان لزاماً علي البحث في متون كتب البعض من المؤرخين الذين سجلوا في حياتهم وقائع الحياة الاجتماعية في ظروفها البيئية ، وكان من أبرز هؤلاء "المقريزي " ، و"ابن إياس" ، و"الجبرتي" ، و" مبارك" .

وإذا بدأنا "بالمقريزي" نجده يتحدث في خططه عن القاهرة وشوارعها وحارتها ودروبها ، وقصورها ، وأسواقها ، ومساجدها ، كما يصف أحداثها دون مغالاة ، وفى هذا الإطار جاء من بعده " ابن إياس " أول المؤرخين المصريين الذين كتبوا عن العصر العثماني ، فقد شهد الفتح العثماني لمصر والسنوات الأولى من حكمهم فيها ، وكان آخر سلسلة المؤرخين الذين كتبوا عن أواخر العصر العثماني هو الجبرتي ، كما عاش حكم "محمد على" في سنواته العشرين الأولى ، وهى السنوات التي اشتغل فيها بتحطيم البناء العمراني القديم ، ليبنى العمران المخطط الحديث ويعتبر" الجبرتي" مكملا لكتابات تاريخ القاهرة عند "ابن إياس" الذي عاش إلى أواخر سلطنة المماليك ، ونقل في تاريخه ما يتعلق بالحياة الاجتماعية في القاهرة وأحداثها ، إلا أن الكتابات التاريخية "للجبرتي" كانت أوسع ثراء ممن سبقوه في وصف هذه الأحداث في واقعها الميداني ، والتغييرات التي لحقت بعمران المدينة وقد تناولها بشكل تحليلي نقدي ، وفى العصر الحديث جاءت خطط "مبارك" على نسق خطط "المقريزي" في تحديد الملامح الطبوغرافية والايكولوجية للمدينة ، وهما عنصران متشابهان في رصد حياة المدينة .

لقد كانت الحياة في مجتمع القاهرة منذ العصور الوسطى ، تنطوي

على ممارسات معقدة ومتغيرة بتغير الظروف السياسية المتتابعة على المكان ، والمكان هنا مفهوم أساسي من مقومات التغيير في بناء المدينة وبيئتها ، وهى علاقة جدلية مع الظواهر الاجتماعية التي هي نتاج تفاعلات بين سكان المكان تكشف عن ظواهر اجتماعية متشابكة التعقيد ، وبجانب كل ذلك يمكن القول أن مجتمع القاهرة تشكل من أجناس متباينة الجنس والعرق بحكم الغزو ، بالإضافة إلى الهجرات المتدفقة عليها ، وهؤلاء أصبحت لهم أحياء في نطاق جغرافي يعكس وضعهم الطبقي المنعزل الذي لم تكن تمثل مصر لهم فيه وطناً ، وأصبحت العلاقات بين كل جنس منهم تقوم على المؤامرات والصراعات ، وفى كل الأحوال كانت تنعكس على الحراك السكاني ، وإذا كان المجتمع الكلى يشكل أساس البناء الاجتماعي للمدينة ، فإن السكن والسكان هما الأساس المتين في حياة المدينة ، وهو ما يمكن أن نعتمد عليه في تصوراتنا للأحياء ، وشوارعها ودروبها وأزقتها ، فهي تشكل أوردة وشرايين الحياة في البناء الوظيفي للمجتمع ، وهو ما يساعدنا في تفسير قوى العمل واقتصاديات السوق ، والحركات الاجتماعية وأشكال العقائد والعادات والتقاليد وصراع الثقافات بين الرفض والقبول ، ورغم شموليتها واحتمال تطابقها على أرض الواقع ، يقتضي الأمر عملا إيجابيا لتفسير تلك الوقائع للربط بينها بحيث نستطيع العثور من جانبنا على التأثير المتبادل بين الموقع والموضع بالنسبة للمدينة العتيقة (للقاهرة) . إن مضمون هذه الدراسة وما أقدمت عليه من تصورات للطبوغرافيا الاجتماعية لمدينه القاهرة العتيقة تعنى عند الباحث مخاطر المبادرة . ومهما يكن فروض دراستها وصلتها بالمتغير المستقل والمتغير التابع للعلاقة الجدلية بين الإنسان والطبيعة الفيزيقية للمكان ، فالواقع إن نتائج هذه العلاقة لم تكن ننجيه المصادفة ، بل كانت تخضع لهيمنة الإنسان في التغير لإعادة الشكل الحضاري للمدينة بكل الجوانب المادية والثقافية التي تصوغ صناعة الإنسان عالمه ، ومهما

يكـن مـن فلسـفه الموضـوع طبوغرافيـا واجتماعيـا ، فقـد جـاءت الدراسـة بشكل نسقى حول جوهر المدينة العاصمة في إطـار منظومـة فكريـه تجمـع هذه الأنساق في سعة كلية المدينـة .

ويمكن النظر إلى هذه المنظومة فيما تنطوي عليه تقسيم الدراسة ، وهو تقسيم بين طبواغرافيه المكان وفعل الإنسان في أحقـاب الزمـان ، وهـى عمليه الواقع الاجتماعي وتركيب يتسم بإعادة الصورة لحياة مـن خـلال توجيه انتقائي للمكان يستند على براهين تاريخيه ومشاهد أثرية.

الباب الأول

- **الفصل الأول:** الحركة التاريخية للموقع والموضع.

- **الفصل الثاني:** المدينة العاصمة وما فيها من متغيرات.

- **الفصل الثالث:** الوزن الديموجرافى والطابع الاقتصادي

- **الفصل الرابع:** البناء الطبقي في المدينة.

- **الفصل الخامس:** أحياء الأولياء وميثولوجيا الموالد.

الفصل الأول

الحركة التاريخية للموقع والموضع

أن الغاية من دراسة الطبوغرافيا الاجتماعية للمدينة العتيقة هو معرفة العملية وفهم العلائق بين المتغيرات ، هذا الارتباط بين المتغيرات الطبيعية الاجتماعية هذا الفهم يقتضى في دراستنا الحديثة في تاريخ المكان ومتغيرات الحياة الاجتماعية فيه ، ولا يعنى ذلك دراسة تاريخيه في ترتيب أحداث هذه الحياة ، صحيح أن التاريخ يمدنا بأخبار الزمان والمكان وفعل الإنسان ، ولكنه لايحمل معه ارتباط للعلاقة فيما بينهما من حيث أن بعض الأحداث علل وبعضها معلومات .

وليس التأثير المتبادل بينهما بالأمر الهين خاصة في حركة التاريخ الطبواغرافى الاجتماعي للمدينة العتيقة في موقعها وموضعها وهما الصورة العلمية التي لقت تركيبا نظريا بين علمي التاريخ والجغرافيا.

الموقع: Location

هو ذلك الإطار الجغرافي الواسع الذي تحدده العلاقة المكانية العريضة ، والقيم الإقليمية النسبية ألتي تتعدى كثيرا الحدود المحلية للمدينة ، وقد تصل إلى أبعاد قارية برمتها ، لذا فهو فكرة متغيرة على مر العصور وبالتالي فقليل من المواقع ما يعد خالدا في التاريخ ، أما الموضع Locality فهو بكل بساطة الرقعة المحلية التي تقوم عليها الكتلة المبنية مباشرة وهو لا يتغير إلا بزوال جسم المدينة ذاته وانتقالها إلى رقعة أخرى.

وحينما نتحدث عن "القاهرة" كموقع تاريخي نجدها تحتل موقعا فريدا في مصر وخارج مصر ، في إطار التقاء الدلتا بالصعيد ، في عقدة الوادي وصرته ، وهو موقع حتمي خالد ظلت العواصم تدور فيه ، قد تنتقل من موضع إلى موضع ، ولكنها لا تخرج عنه إلا في فترات عابرة في التاريخ القومي ، فموقع القاهرة إذن هو خاصرة مصر ، مجمع الوادي والفرعين ، ملتقى الصحراوين ، كأنما القطر كله على ميعاد فيه. لقد تحركت فيه العاصمة عبر العصور ولكن دون أن تخرج عن مجاله

المغناطيسي ، فمن منف الفرعونية (في منطقة البدرشين حاليا) إلى أون (عين شمس) أو هليوبوليس (مصر الجديدة الآن) إلى بابليون ، ومن الفسطاط العربية ثم إلى العسكر والقطائع الطولونية حتى القاهرة الفاطمية، كل أولئك حلقات متباينة في سلسلة جغرافية أو نسل إقليمي واحد أساسا عبر به المكان في مراحل الزمان .

وخلال السنوات الأخيرة ظهرت محاولات فكرية عديدة للتعرف على نشأة القاهرة، والعوامل التاريخية الجاذبة لموقعها الجغرافي ، والثقل السياسي الذي لعبته خلال تاريخها.

لقد تحدث الرحالون والمؤرخون عند وصف" قاهرة مصر العتيقة" حول النمط المعيشي الأساسي ، فحاولوا تحديد عوامل تكوينه وميكانزمات تفاعله ، وليس من الصدفة أن تكون مدينة القاهرة موضوعا أساسيا عند علماء الحملة الفرنسية، إذا استعنا بكتاب وصف مصر الذي وضعه علماء الحملة الفرنسية فهو حقا من أفضل الآثار العلمية التي كتبت عن مصر بآثارها وجغرافيتها وخططها وخواصها العمرانية ، وهو نتاج خبرة العلماء الفرنسيين ، وقد شغل أربعة وعشرين مجلدا كبيرا تخللها مئات الخرائط والجداول والرسوم ، وكانت تلك الخرائط نقطة الانطلاق لأعمال "على باشا مبارك" في تأليفه للخطط التوفيقية لمصر القاهرة .

والواقع أن بداية الدراسات الجادة لمدينة القاهرة هي التي نشرها "كارجيه" عام ١٩٣٤ والتي تناولها من منظور الجغرافيا الحضارية والتاريخ والاقتصاد ، وجاء بعده كتاب "ديزمونت ستيوارت - بعنوان "القاهرة " ، وهى دراسة في جغرافية المدينة ، تمثل الأساس الطبيعي الذي تقوم عليه العاصمة موقعا ووصفا ، ويتبع نموها العمراني في ظاهرها وخطتها الهندسية وكتلها الإنشائية ووظائفها ، ثم توزيع طبقاتها الاجتماعية من منظور الطبوغرافيا الاجتماعية.

والطبوغرافيا Topography تعنى الملامح العامة لسطح الأرض

، طبيعية كانت او مصنوعة بفعل المجتمع ، ومن هنا تصبح العلاقة جدلية بين تأثير جغرافية المكان على الإنسان ، وتغيير حياة الإنسان في جغرافية المكان.

الواقع أن هذا المصطلح في معناه صكه المهندس الفرنسي"جاستون باردير" ويعنى التوزيع الجغرافي للطبقات الاجتماعية على أرض المدينة، وموقع السكن وعلاقته بالمكانة الاجتماعية فيها ، ويضيف (جاستون) في مشروع الطبوغرافيا الاجتماعية بأنها ليست الطبقة وحدها بل موقع الجنسيات ، والطوائف ، والأقليات الدينية على خريطة المدينة ، وتاتى أهمية الطبوغرافيا الاجتماعية في عاصمة كوزموبوليتانية كالقاهرة على وجه التحديد كبلد لها تاريخ ، ويكشف " وتيرو " عن هذه الملامح في توزيع السكان بين الأحياء الغنية والفقيرة ، وموقعهما من حركة النيل وشرايينه واستغلال انحسار فيضانه، وتغيير مساحات الأرض، مما أدى إلى تغيير الخريطة الاجتماعية لسكان المدينة .(حمدان :ص١٤)

الموضع : Locality

يعتبر الكثير من العلماء المهتمين بجغرافية المدن وتاريخها أن مدينة القاهرة تعبر عن واقع تاريخي وجغرافي تنفرد به عن كثير من مدن دول العالم.

وحينما نتتبع الحركة التاريخية للقاهرة منذ نشأة الفسطاط في أقصي الجنوب قرب نهر النيل نجدها نشأت كمدينة حربية أساسا تنشد موقع الحماية المرتبطة بالنيل والتحصن بالطبيعة ، وكانت النتيجة مدينة أكروبولية ، اي مدينة قمة تل

وهو بالتأكيد أكثر من صدفة كما يذهب "ديزموند ستيوارت" إلى حد تشبيه جامع ابن طولون على جبله بالبارثينون على الأكروبول في أثينا .

لقد بنيت العسكر إلى الشمال الشرقي منها ثم القطائع على جبل يشكر (اسم قبيلة عربية) في نفس الاتجاه ، وأخيرا القاهرة المعزية (المنسوبة إلى المعز لدين الله الفاطمي) التي بدأت كمدينة ملكية محرمة ، فإنها لم تغير تلك الصفة الاكروبولية العسكرية اساسا ، فكانت جميعها تلتزم السفوح التلية العالية في الشرق تعززها بخط دفاع وحماية أسوار المدينة المتعددة والمتعاقبة ، وكل ما حدث أنها كانت تزحف من موضع جنوبي إلى موضع شمالي أكثر .

ما دمنا قد تحدثنا عن المدينة المسورة بسور المدينة ، تجدر الإشارة إلى ملاحظتين :

أولا: أن جغرافية مصر الطبيعية في هذا الصدد شذوذ عالمي نادر.

ثانيا: انها بدورها لها شذوذ نادر في مصر نفسها ، ففي العصور الوسطي وعصر الإقطاع كانت المدينة المسورة هي القاعدة العالمية طلبا للحماية من الأخطار الخارجية والصراعات الإقطاعية الداخلية ، ولكن حالات ثلاث فقط في العالم لم تكن نعرف أسوار المدن بفضل حمايتها الجغرافية الطبيعية ، وتصفية النظام الإقطاعي منذ وقت مبكر تلك هي بريطانيا واليابان ومصر ، وكلها جزر حقيقية ـ أو يمكن القول مجازاً — على ضلوع قارة يفصلها عنها بحر الماء أو بحر الرمل ، ولقد كانت الصحراء كما يعبر "لويس ممفورد" هي السور الطبيعي لمصر ، ولكنها لم تكن كذلك للقاهرة تماما ، فقد كانت العاصمة بموقعها وأهميتها موطن الخطر الخارجي الدائم والصراع الداخلي كذلك ، فكان السور ضرورة إستراتيجية منذ البداية ، وتعددت أسوارها وتحصيناتها واتسعت مع نمو المدينة ، وذلك حين لم يعرف تاريخ المدن المصرية السور أو الحائط عدا بعض الموانى والثغور .

هذا عن نمو المدينة في حضن التلال ، وفي المراحل اللاحقة فقط بدا

يضاف إلى التوسع نحو الشمال توسع آخر في اتجاه جديد نحو الغرب، فمع نمو الأرض الطبيعية ونضجها الفيزوجرافي على حساب النهر المتراجع غربا ، بدأ الاستثمار الزراعي ثم البناء العمراني يزحف غربا ، وفي الحصيلة ، فلقد أخذت الرقعة العمرانية تنمو في اتجاهين لا في اتجاه واحد ، أي شمالا وغربا . وتلك هي الحركة التاريخية والأساسية لنمو القاهرة ، وهى حركة مطردة وإيقاع ثابت مهما توقفت المدينة أو انتكست في مراحل الجمود والانكماش ، وفى كل الأحوال وصلت مساحة القاهرة المأهولة في نهاية القرن الثامن عشر بحوالي الف وثماني مائة وأربعين فدان أي اقل من ربع مساحة باريس كما قدرها العلماء الفرنسيون ، في ذلك التاريخ كما كانت في تلك الفترة ، وأيضا فترة محمد على مقسمة إلى خطط ، فكانت منها خطط الحسينية وباب الشعرية وبولاق بما يمثل اقصي حدود امتداد المدينة شمالا ، دون أن يعني ذلك بالضرورة أن كل ما في الجنوب كان عمرانا كاملا وسكنا متصلا ، بل كان هناك فجوات شاسعة من البرك والمستنقعات وتلال الأتربة التي تتخلل المنطقة المبنية دون أن يعنى ذلك انعدام العمران المبعثر الخفيف إلى الشمال ، ولقد كان "محمد على" نفسه هو الذي بدأ الاتجاه إلى جاردن سيتي لتكون سكنا راقيا لعائلته ، بينما لم يبدأ حي الإسماعيلية إلا أيام "الخديوي إسماعيل" كما كانت التوفيقية أيضا أيام الخديوي توفيق ، وبالمثل فإن النمو الأساسي في نطاق القاهرة مثل الفجالة والأزهر وغمرة والسكاكيني أي جنوب خط المترو ومحطة مصر لم يتم حقيقة إلا بعد عام ١٩٠٠م ، وأحدث من ذلك كله بالطبع ما كان نحو الشمال الشرقي ابتداء من الدمرداش ومنشية الصدر عبر القبة بأقسامها ، ومنشية البكري حيث يتفرع إلى شعبتين إلي الزيتون ، فالحلمية والمطرية ، فعين شمس شمالا إلى مصر الجديدة جنوبا، وهذا يصدق أيضا على نمو الشمال ابتداء من روض الفرج إلى الساحل وشبرا بأقسامها والحدائق والخيمة والمظلات والبلد .(حمدان: مقدمة في كتاب

ديزموند ستيوارت).

وفى ضوء هذا النمو وتداعياته نستطيع ان نضع فكرة النسق الطبيعي للطبوغرافيا في السياق التاريخي للمدينة العتيقة الممتد في أعماق مئات السنين ، وان كانت المدينة قد تجاوزتها بالف عام ، وفى ضوء هذا السياق التاريخي يبرز النمو العمراني ، وعلاقته بالبناء الاجتماعي بين القديم والحديث في دائرة المكان .

إذا ما نظرنا إلى المكان بالمعنى الاجتماعي نجده مجرد شئ أو نسق من الأشياء ، بل إنه واقع من العلاقات ، وبمعنى آخر واقع من الأشياء و العلاقات معاً ، وبالتالي لا يمكن وضع تعريف محدد إلا في ضوء علاقته مع الحقائق الطبيعية والاجتماعية عن طريق عمل وسيط ، فالمكان إذن ليس كما هو معروف في الأدبيات الجغرافية القديمة مجرد نتاج تفاعلى بين الإنسان والطبيعة في شكله الإقليمي ، وليس مجرد الاندماج المتفاعل بين المجتمع والطبيعة التي تحيطه ، ومن هنا يمكن القول أن المكان لا يمكن أن نفصله عن الأنساق الطبيعية والاجتماعية معاً، إذن فالمكان هو مجموعة وحدات جغرافية تحتوى عدداً من قطاعات المجتمع دائب الحركة في علاقته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية في البناء الكلى للمدينة .

إن المضمون البنائي للمدينة حديثاً أو قديماً أصبح هو المجتمع الذي تم تشكيله في قوالب جغرافية ، أو المجتمع الذي تحول إلى مكان ويكون بدوره حركة دائبة ومركبة تتضمن جدلية بين المجتمع والمكان ، ويكتسب المكان تاريخياً أهميته الكبرى من الطبيعة بكل جوانبها حتى أصبحت قوة منتجة ، فحينما تقع كل الأماكن والنظم التدريجية للاستخدامات معها تبعاً لمساعدة المؤثرات السلبية والإيجابية لها تكتسب كل نقطة في المكان هيمنة فعليه أو ممكنة للمميزات والخواص التي تضمنها العناصر الطبيعية والاجتماعية السابقة الوجود كالنهر والجبل

والموارد الطبيعية والإنسان ، وهو ما يذهب إلية العالم الجغرافي"ميلون سانتوس "Milton Santos.

وبحكم تحيزه الجغرافي انطلق من النظرية السببية التي يعنى بها أن العوامل الجغرافية الواحدة تنتج نفس الظواهر الاجتماعية (santos:p657) ، وبالرغم من أن هذه النظرية وجدت قبولاً عند بعض الجغرافيين ، إلا أنها وجدت رفضاً عند فريق آخر، إلا أنه من المفارقات أن تأتى هذه النظرية في ضوء النظرية الجغرافية عند "ابن خلدون" الذي أكد فيها أن البيئة الجغرافية تؤدى إلى مختلف الظواهر الاجتماعية المتشابهة ، حتى أنه لم يترك ظاهرة اجتماعية إلا وأرجعها لسبب جغرافي (وافى : سلسلة التراث : ص ٢٢٨) .

الواقع ان هيمنة البيئة الجغرافية على الإنسان نجدها قد أثارت نقطتين :

النقطة الأولى عند علماء الأنثروبولوجيا ، انطلاقا من فكرة بسيطة، أن البيئة قد تكون قد أدت إلى العوامل التي تحدد الملامح الاجتماعية والثقافية لموطن الجماعات الإنسانية التي تعيش فيها . وفى نفس الوقت فإن موضوع الحتمية الطبيعة للبيئة كان موضع نقد عند بواس وياليتوفسكى .

لقد وجدوا أن بعض الثقافات تتباين بتباين الطبواغرافيا والمناخ.(Milton: p.487) فهي تبدو كسلسة بين الجماعات الإنسانية في مواطنها الأصلية سواء الريفية ، أو البدوية ، أو الحضرية ، كما تختلف فيما بينهما لتحكم المناطق الجغرافية وظروفها المناخية .

النقطة الثانية أن النظرية السببية كانت أحادية التغير في الاستنتاج، وتجاهلت العلوم الاجتماعية التي تناولت تأثير الإنسان في الطبيعة ، وما

أحدث فيها مـن شـق الأنفـاق في الجبـال ، وإزالـة القلاقـل ، وتحويـل الأنهـار ، وحفر الممرات وبناء السدود فيها ، وتجفيف البحيرات، وشق الخلجان والترع والقنوات ، وكلها من مظاهر تاثير الإنسان في طبوغرافية المكان .

لقد ادرك علماء الجغرافيا عدم صحة النظرية السببية ، واعتبروها فكرة دفاعية من التقاليد النظرية القديمة التي عفى عليها الزمن ، وخلال العقد السابق حدثت صحوة بين علماء الجغرافيا ، فاتجهوا نحو منظور ثقافي واجتماعي وتاريخي، أطلق عليه سحر النظرة الزمانية للمكان .

وفى ضوء هذا النطاق وجه علماء الجغرافيا اهتمامهم إلى تحليل المدن كوحدات مستقلة بذاتها ، ولكن تطور نظرياتهم جعلتهم يتوجهون إلى دراسات علماء التاريخ والآثار والاجتماع والتخطيط العمراني ، ولقد شمل هذا الاهتمام البناء الداخلي للمدينة ، ولقد أدخل الجغرافي" بريان برى" فكرة تحليل عوامل العلاقة البينية بالعوامل الاجتماعية والاقتصادية والسكانية . (Gould:,p p 22,44a)

إذن ففكرة تحليل العوامل هي مجرد تاكيد على رفض الحتمية السببية التي تكمن في تأثير الطبيعة على الظواهر الإنسانية، وبالتالي فإن المتتبع لطبوغرافية القاهرة المدينة العتيقة لا ينكر جوهر العلاقة بين الطبيعة والإنسان وعوامل التغيير، فالنيل فرض هيمنته على الموقع بفيضه وانحساره وهجرته للموقع ، فما تركه من طرح لرواسبه شكل إضافة لمساحات أرض جديدة ، كما أن انحساره خلف برك ومستنقعات امتدت إليها يد العمران فغيرت من طبيعتها هي الأخرى ، لتصبح أرضاً للعمران البشرى وعلى سبيل المثال لا الحصر سكنت بركة الأزبكية وبركة الفيل وبركة الرطلى وخضعت للعمران، كما أن جبل المقطم والتلال بظروفها التاريخية حافظت على بقاء المدينة ، ومن ثم أصبحت أرض القاهرة مع المتغيرات الطبيعية فيها صالحة للبناء والتعمير والتشييد، كما اصبحت العلاقات الاجتماعية بالمكان تتأثر بالقوى السياسية التى

تحكمها ، وتستطيع أن نرى شق الخليج وأثره في طبوغرافية المكان وتأثيره في حياة مجتمع المدينة .

لقد بدأ شق هذا المجرى المائي ليبدأ من النيل إلى البحر الأحمر ، وحينما نسترجع تاريخه فإنه يرجع إلى أيام ولاية "عمر بن الخطاب" بعد فتح مصر ببضع سنوات ، فقد حدث في سنة ٢١ هـ / ٦٤٢ م قحط وجدب شديدان بالحجاز ، وسمى ذلك العام بعام الرماد ، لأن الأرض وما عليها من شجر أصبحت سوداء الرماد ، فاستنجد "عمر بن الخطاب" بواليه على مصر "عمرو بن العاص" ليمده بالطعام لإغاثة أهل الحجاز ، ففعل وكان ذلك مبررا لأن يأمر عمر بن الخطاب بحفر هذا الخليج كممر مائي ليساعد في نقل المؤن والخراج للحجاز بسهولة ، وفي أسرع وقت تم حفر الخليج سنة ٢٣ هـ / ٦٤٤ م ، ولم يأت عليه حول كما يقول "المقريزي" حتى جرت فيه السفن وحمل فيه ما أراد ، وكان يخرج من شمالي مصر القديمة وقد أطلق على هذا المخرج فم الخليج ، متجها إلى الشمال حتى نهاية القاهرة ، ويمر في الأرض الزراعية ، حيث مجرى الترعة الإسماعيلية إلى العباسية بالشرقية ، ثم إلى مدينة الإسماعيلية ، ومنها إلى القلزم (السويس)على البحر الأحمر ، وفى وسط القاهرة بنى عليه عبد العزيز بن مروان والى مصر قنطرة عام ٦٩هـ لتيسير عبور الناس عليه .

الواقع أن هذا الخليج تعرض للأهواء السياسية ، فتتغير فيزيقيا بالردم إذا أراد أحد الخلفاء الضغط السياسي على مصر وتجويعها بتحويل تجارة الهند عنها إلى الفرات في بغداد، كما فعل الخليفة المستنصر المنصور العباسي . (شحاتة : ص ٣١) .

<u>التباين السكاني على شاطئ الخليج :</u>

هذا بالنسبة لاتخاذ الخليج ممرا مائيا للحجاج ولسفن التجارة ، كما كان رهنا للأهواء السياسية ، إلا أنه في نفس الوقت كان عاملا من

عوامل الحراك السكاني ، ومسرحا لتقاليد وجدت تشجيعا من بعض الحكام لاستمالة الناس إليهم ، وعلى عكس هؤلاء ، اعتبر البعض هذه التقاليد خروجاً عن مبادئ الأخلاق ، ومع ذلك كانت مظاهر التعمير السكاني تبدو من أعداد القصور والمناظر على الخليج ، حيث كان الخلفاء والوزراء والأمراء والأعيان يتنافسون في الإقامة فيها أيام الفيضان وامتلاء الخليج بالمياه .

لقد اكتسب التعمير في عهد سلاطين المماليك والأمراء نموا طبقيا على شاطئ الخليج ، وتكونت الخطط العمرانية ، وأصبح الخليج في منتصف القاهرة بعد أن كان يمثل حدها الغربي ، ولقد أضاف المماليك توسعا عمرانيا على ضفتي الخليج بعد بناء القناطر ، وكانت موضع تميز لسكان القاهرة في العصرين المملوكي والعثماني ، ويصف الجبرتي ما كان عليه الخليج في القاهرة العثمانية بانه كان يحاط طوال القرن الثامن عشر بالدور الفخمة خاصة في المنطقة الواقعة بين درب سعادة (باب الخلق) الذي اكتظ بالمنشآت الدينية والمدنية والمناظر والمقاعد الحافلة بالمشربيات ، وكانت تطل مباشرة على الخليج بل كان أساسها بمثابة أرصفة له .

وعندما كان الفيضان ياتي في المنطقة من كل عام ، ويتم كسر الخليج ، أي فتح السد المقام عند فم الخليج ، يبدأ احتفال كبير بمناسبة انطلاق مياه نهر النيل فيه، التي كانت تغذى مجموعة برك " الأزبكية " والفيل ، والرطلى ، وغيرها مما كان يترتب عليه حدوث النشاط الاجتماعي والترفيهي للسكان .

مظاهر الاحتفالات:

وكان الاحتفال بمناسبة كسر الخليج يتم بأن تخرج القاهرة لمشاهدة السلطان الذي يباشر هذه المهمة في رهبة وخشوع ، ويركب

الحراقة السلطانية (مركب كبير) لكسر الخليج الكبير في احتفال مشهود.

وفى نفس الوقت حظيت مراسم كسر الخليج بمظاهر ثقافية شعبية يردد فيها العامة الأغاني والأهازيج وهم في مراكب تجوب نهر النيل ، ويصف " المقريزي " تجاوز سكان القاهرة للقيم الأخلاقية في هذا الاحتفال بقوله : فركب أهل الخلاعة وذوو البطالة في مراكب في نهار رمضان ، ومعهم النساء الفواجر ، وبأيديهن المزاهر ، يضربن عليها ، وتسمع أصواتهن ، ووجوههن مكشوفة ، لا يخافون من أمير ولا مأمور شيئاً من أسباب الإنكار ، وأبطل " الظاهر بيبرس " و " سلار " مظاهر ركوب الخليج إلا باستثناء المراكب التي تحمل متاعا من متجر أو نحوه . (المقريزي : ص ٣٤٥)

ولكن يبدو أن ثقافة العامة بالنسبة للعادات والتقاليد تستكين لقرارات السلطة الحاكمة فترة ثم تعود إذا ما وجدت رخاوة فيها ، فتخرج من كمونها بالعودة إلى ممارسة هذه العادات ، وقد وجد البعض الفرصة أثناء احتلال الفرنسيين فأوعزوا إليهم بضرورة استمالة الناس إليهم من خلال إحياء عاداتهم كوفاء النيل وكسر الخليج ، ووجدها نابليون فرصة ليشارك الناس عاداتهم وأمر بالاحتفال بكسر الخليج .

ويصف "الجبرتي" هذا الاحتفال بقوله : كان وفاء النيل المبارك احتفالا بوفائه كالعادة ، وأكثر الفرنسيون من رمى المدافع والصواريخ من المراكب والسواحل ، وهكذا يضربون أنواع الطبول والمزامير ، وفي الصباح ركب قائمقام أكابر الفرنسيين وأكابر أهل مصر ، وحضروا إلى قصر السد وجلسوا به ، واصطفت العساكر بين الروضة وبر مصر القديمة ، بأسلحتهم وطبولهم ، وبعض المراكب تضرب المدافع المتتالية إلى أن انكسر السد وجرى الماء في الخليج فانصرفوا . (الرافعي : ص ١٠٥)

الخليج وطائفة السقائين :

الواضح أن المجرى المائي للخليج غير من طبيعة المكان ، فقد اخترق الأحياء واقترب من الدروب والأزقة فكان مصدرا مباشرا للسقيا من مصدره ، وإن كانت حركة السقائين ارتبطت بالنيل ، إلا أن الخليج أدى إلى زيادة هذه الطائفة وحاجة السكان إليهم.

وتطالعنا كتب الرحالة بإشارات مهمة عن هذه الطائفة ، فقد كانوا يقيمون بالقرب من مجرى الماء نظرا لما يحتاج إليه النقل من جهد ومشقة وكانت لهم حارة تعرف باسمهم (حارة السقايين – بعابدين) ، كما كان في القاهرة وحدها مائتي ألف جمل لنقل المياه ، فضلا عن آلاف أخرى من الدواب كالحمير والبغال ، وآلاف من الحوانيت التي تبيع المياه العذبة اللازمة لحاجات السكان في المنازل والحارات ، وفي الأسواق والشوارع.

وبهذه المناسبة عرفت أحياء القاهرة الساقي الجوال وسقائي الكيزان، وأرباب الروايات والقرب والدلاء ، وكانت الدولة تفرض عليهم تعليمات مشددة تتعلق بنظافة الأدوات المستخدمة لهذا الغرض كالأزيار والكيزان ، وعدم غش ماء النيل بماء الآبار ، وغير ذلك من الأمور التي تؤثر على صحة الناس ، فكان على السقاء أن يكون نظيف اليدين ، خاليا من العاهات ، وأن يبتعد عن أماكن الوسخ ، وفي بعض الأحيان كانت تحدث أزمة في ماء الشرب ويعز وجوده ويزداد الطلب على أرباب الروايا والقرب ، فيضطر الناس أنفسهم إلى نقل الماء من النيل في جراء ويحملونها على ظهور الحمير . ويذكر "المقريزي" أن كثيرا من السقائين كانوا يمارسون حرفة الإطفاء حيث يلزمهم والى الشرطة بالتجمع يوميا في مكان ما ، تحسبا لوقوع حريق ، فيسارعون إلى إخماد النيران (علاء: ص ٩٨).

إذن ارتبط السقاؤون بالنيل والخليج ، وأصبحوا يمثلون قوى خدمات فاعلة في المدينة ، ويبدو أن فائدة الخليج في عصر " إسماعيل "

كانت قاصرة على ري مدينـة القاهرة وضـواحيها ، وبعـد إدخـال أنابيـب المياه تراجعت أهميتـه ، وفي إطار تحديث القاهرة صرح الخـديوي إسماعيـل لشركة ترامواي بـردم خليج أمير المؤمنين ، وتم تنفيـذه في عهـد توفيـق سنـة ١٨٩٨م ، وتم تشغيل الترام فوق ردمه ، وهو الفرع الذي عـرف بترامـواي الخليج ، ثم تم الاستغناء عن هذا الترام (شحاتة : ص ٣١٨) .

بإيجاز يمكن القول ، أن هذا التحديث جاء ليثير مشكلة اجتماعيـة واقتصادية للسقائين الذين أبطلت حـرفتهم ، بجانـب المكاريـة (الحمـارين) الذين كانوا ينقلون علـى دوابهـم قـرب الميـاه ، ومـن الطبيعـي أن تـنعكس هذه البطالة على الحياة الاجتماعية والاقتصـادية في ظـل حـرف متوارثـة لا تقبـل التغـيير، وهـو مـا كـان يـؤدى في النهايـة إلى انضـمام هـؤلاء لفئـات العاطلين أو حرافيش المدينة.

الفصل الثاني

المدينة العاصمة وما فيها من متغيرات

المدينة وما فيها من متغيرات

إذا ما سلمنا بأن موضع العاصمة هي الرقعة المحلية التي تقوم عليها الكتلة المبنية ، والتي لا تتغير إلا بزوال جسم المدينة وانتقالها إلى رقعة أخرى ، يصبح السؤال لماذا تحرك موضع العاصمة من الفسطاط إلى العسكر والقطائع، وإلى القاهرة المعزية ، والقاهرة الأيوبية ، وما علاقة هذا الوضع بطبيعة المكان والإنسان ، وبمعنى آخر ما هو تأثير الإنسان في تغير طبوغرافية المكان والإنسان ، وتداعيات هذا التغير في الحياة الاجتماعية لنفس المكان و هو السؤال المحوري لدليل الدراسة .

١. الفسطاط المدينة الحصينة :

ولتكن بدايتنا العاصمة العتيقة أو الحصينة والمقصود بها الفسطاط كما يؤرخ المقريزى :

شهدت الفسطاط مولدها على يد عمرو بن العاص عام ٢٠ هجريه ٦٤١م ، بعد طرد الروم من الإسكندرية ، وانصرافه إلى تحديد المنطقة المنبسطة — المحصنة بالحصن الروماني الشهير من ناحية الشمال الذي يحده جبل المقطم من الشرق ، ويقع النيل من غربه ، وكان يقوم تجاه هذا الوضع من الضفة المقابلة للنيل مدينة منف القديمة.

وكان النيل يربط العاصمة القديمة بالعاصمة الجديدة ، وإن فرقت بينهما القرون والأجيال ، لقد أطلق على هذا المكان الفسطاط ، أي مكان الخيمة التي عسكر فيها عمرو بن العاص ، كما أن هذه الكلمة تعنى المدينة الحصينة ، وكحقيقة فقد غير النيل من طبيعة المكان بين فيضه وانحساره كظاهرة طبيعية للأنهار، وبالرغم مما يبدو من الموقع الطبيعي الحصين للمدينة العاصمة أعاد عمرو بن العاص حفر قناة قديمة تشق المدينة كان لها توابعها الاقتصادية والسياسية فيما بعد.

إلا إن ما يهمنا ما يرتبط بالمكان وطابعة العقائدي و السياسي ، لقد كانت بداية نواة العاصمة المسجد ، ودار الإمارة ، وتخطيط مناطق العمران ، وسكن قواده وحاشيته ، والقبائل التي شاركت في فتح مصر، وكان أغلب هؤلاء من عرب الجنوب أو اليمنية ، وعرب الشمال أو العرب القيسية وكانوا أغلبية .

وقد عرف من بين هذه القبائل الذين استوطنوا الفسطاط جماعات من قرين والأمصار وخزاعة ، كما كان بينهم عدد من الصحابة الذين شاركوا في هذا الفتح والتخطيط ، وفي بناء المسجد الجامع ، وقاموا فيه بالتدريس وتعليم اللغة والسنة (المقريزى : ص١٠٦) .

ونستطيع إن نشير إلى أربع نقاط :

الأولى: إن اختيار المدينة جاء محصنا من ناحية الطبيعة المكانية.

ثانيا : إن المسجد بني على أساس حركة تأكيد وجود الإسلام ، ومركز ثقافة أهل السنة.

ثالثا: إن محيطه السكاني كان من القبائل العربية حاملة لواء أهل السنة ، والتي تشكل قوى سياسية ممتدة من الجزيرة العربية.

رابعا: التغير الفيزيقي بشق خليج أمير المؤمنين كان له أبعاده الاقتصادية في التجارة الخارجية ، ودعم العلاقات السياسية . ومن خلال النقاط الأربع يمكن أن يثار سؤال ، هل أدت هذه الركائز إلى استقرار العاصمة أم إرباك وضعها بتغير المكان .

لقد ظلت الفسطاط أول حاضرة لمصر ، ومركزا للسيادة السياسية والاقتصادية طوال عصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية ، ولكن في ظل الصراعات السياسية على الخلافة كانت القاهرة القديمة عاصمة مصر على علاقة بنتائج هذه الصراعات ، خاصة حينما أفل نجم الخلافة

الأموية ، ودانت دولتها ، وقامت على أنقاضها دولة بني العباس ، فتولى أبو عوف بن عبد الله بن زيد ولاية مصر ، من قبل الخليفة العباسي أبي العباس عبد الله السفاح ، أول الخلفاء العباسين فأنشأ مدينة العسكر سنة ٧٥١ م- ١٣٣ هجرية ، وكان موقعها شمالي الفسطاط ، فيما يعرف بالحمراء القصوى ، ويشرف عليها (جبل يشكر وهو جبل مبارك معروف بإجابة الدعاء ، ويقال أن الله كلم عليه موسى عليه السلام) ، وموقعه بجوار جامع عمرو بن العاص بمحاذاة شاطئ النيل الشرقي.

ولاستكمال شكل المدينة تم تشييد دار للإمارة ومسجدا جامعا ، عرف بجامع العسكر — وقد خرب في الصراعات السياسية ونقلت حجارته إلى ساحل مصر (شحاتة :ص٣٨) .

إذن جاء بناء مدينة العسكر على أساس التحصين الطبيعي امتدادا للفسطاط ، ومن ناحية أخرى كانت مركزا للإمارة التابعة للخلافة العباسية ، والشيء الجديد بالذكر وبالاهتمام هو علاقة الأجناس بالمدينة العاصمة ، فقد ترتب على احتلال العباسيين أن تراجعت مكانة العرب بتراجع موضع العاصمة القديمة بعد إحلال العباسيين الأتراك بدلا من العرب .

وكان من عادة الولاة الأتراك البقاء في بغداد أو سامراء وأن ينيبون عنهم حكاما منهم يديرون شؤون الولايات ، ويخطب باسمهم بعد الخليفة في خطبة الجمعة ويرسلون الخراج ، وكان من أثر هذه السياسية أن عمد بعض النواب إلى الاستقلال بمصر عن الخلافة العباسية ، وهذا ما إلى إنشاء عاصمة جديدة، هي القطائع التي ارتبطت باستيلاء أحمد بن طولون الوالي من قبل الخليفة العباسي الذي قدم إلى مصر عام ٢٤٥ هجرية ، وأنشأ القطائع ، ثالث العواصم الإسلامية في مصر ، واتخذ موقعها في حضن الطبيعة ، من شمال الفسطاط التي يحفها النيل إلى قلعة الجبل .

لقد شهدت أرض القطائع ثلاثة تغيرات طبوغرافية في محيط المكان ،

بعد أن قسم أحمد بن طولون الأرض بين أصحابه ، وعلمائه ، وأتباعه ، وارتبط هذا التقسيم بدائرة قصر الحكم وميدانه ، وسمي كل قسم باسم سكانها منها الروم والفراشين والغلمان ، وازدحمت بسكانها ، وتفرعت منها الأزقة والمساجد والأسواق الكبيرة ، ودخلت في نطاقها العسكر والفسطاط حتى أصبت بلدا واحدا .

و بحكم النظام العمراني في المدينة الإسلامية ، شيد احمد بن طولون مسجده الجامع على جبل يشكر لحمايته من الفيضان ، وحتى لا تاتى عليه النيران ، بمعنى إذا احترقت مصر بقي هو ، وإن غرقت بقي أيضا ، ولقد تحقق له ما أراد (فمازال المسجد الجامع شامخا في مكانه) ، أما قصر الحكم فكان بمثابة نواة المدينة ، وكان يقع في الفضاء المعروف بميدان صلاح الدين ، الذي عرف بالرملية ، وقرة ميدان ، والمنشية ، ويمتد إلى ما وراء جامع السلطان حسن الآن ، وفى نفس الوقت حول ابن طولون السهل الواقع بين القصر وجبل يشكر إلى ميدان لمباراة الصوالجة.

ألا إن الشيء الذي يبدو من التغير في الخصائص الطبيعية للمكان هو تحويل هذا الميدان إلى بستان في فترة حكم خماوريه ، فبعد وفاة ابيه أضفى عليه برك وعيون مائية صناعية ، وجعل بينهما مزراب من الرصاص ، وزرع فيه أنواعا نادرة من أصناف الشجر والنخيل ، وكسي اجسامها بالنحاس المذهب كما أطلق تربية طيور الطاووس ، ودجاج الحبش في هذا البستان ، أما عن مظاهر التغير في البناء الداخلي للقصر فقد كان أبرزه إنشاء رواق خاص لمجلسه مطليا بالذهب ، وصور على جدرانه صورا بارزة من الخشب مصنوع على صورة وجوه المخاطبات والمغنيات ، وجعل رؤوسهم أكاليل من الذهب

ويضيف المقريزى " ان هذا القصر ، وما كان فيه من رفاهية اضافها خماورويه ، بأن أنشا بركة من الزئبق وعمل عليها فرات من جلد ينفتح بالهواء لينام عليه ، و يهتز حتى ينام متغلبا على ارقه (المقريزى :ص١٠٦-

١٠٧) ، والواضح في المكان علاقة العقيدة الدينية بجامع طولون ، وترف الدنيا في قصر الحكم ، وتغير طبيعة المكان في ملعب الصوالجة ، وتحويله إلى بستان فيه مظاهر الترف والسفه ، ولقد انعكس هذا على أولاده بعد وفاة أحمد بن طولون ، فانتشرت الفوضى والصراع على السلطة ، وتشرذم العسكر إلى مزق متصارعة ، مما سهل على الخليفة المكتفى بالله إعادة مصر لسلطان الخلافة ، وولى محمد بن سليمان الكاتب لاستردادها .

ألقي في مدخل القطائع النيران والتهمت القصر والممرات والدور والأسواق ، ولم يبق إلا جامع بن طولون ، وبذلك قضى على حكمهم ، ولقد تحقق لهم ما أرادوا واستولوا عليها مصر ، واختاروا القاهرة عاصمة لملكهم بعيدا عن العواصم الثلاث . لم يكن دخول الفاطميين إلى مصر بالأمر الهين اليسير ، فقد سبقها اشتباكات وحروب وفى خضم هذه المعارك كان دعاة الإسماعيلية ينشرون الدعوة للمذهب للناخبين ، وكانت هناك استجابة لها بين زعماء المصريين أثناء وصول جيوش الفاطميين التي عادت إلى إفريقية ، إلا أن الحملة التي قادها جوهر الصقلي ووصل بها إلى الإسكندرية مرة أخرى ، ولم تجد مقاومة بعد أن فقدت الحكومة كل هيبة واستقرار مما حمل الكثير من أولى الرأي في مصر على الكتابة للمعز لدين الله الفاطمي يطلبون منه القدوم إلى مصر لإنقاذها من الفوضى التي انتشرت فيها بعد ولاية كافور .

وكعادة الغزاة في التمهيد لاحتلال البلاد أن يقدوا أيديولوجيتهم في خطاب أمان على مبررات قيمة تتمشى مع عواطف الناس واحتياجاتهم وقبول الغازي المنقذ.

لقد كان المدخل الإعلامي لغزو الفاطميين كتاب الأمان الذي أعلنه للمصريين عند دخوله لمصر من الإسكندرية ، وحتى لا أسبق الأحداث فقد كان خطاب الأمان هذا يكاد يتناسب في غايته مع كتاب الأمان الذي أعلنه نابليون في الإسكندرية قبل غزو القاهرة ، وليكن

حديثنا على لسان جوهر الصقلي يتضمن بعض المعاني " إن جيوش الفاطميين اتت لحمايتكم ....كما عرض لبرنامج الإصلاحي الذي سيقوم به كإقامة الحج ، واصلاح الطرقات ، والعمل على استتباب الأمن ، وتوفير الأقوات ، واصلاح العملة ، ونشر الدعاة كما وعد بترميم المساجد وتاثيثها ، وأن يدفع للمؤذنين فيها وللأئمة رواتبهم من بيت المال ، كذلك أكد في كتاب الأمان على أن يظل المصريون على مذهبهم أي لا يلتزمون بالتحول إلى المذهب الشيعي ، وأن يجرى الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره والزكاة على ما ورد في كتاب الله وسنة رسوله ، وتعهد في كتاب الأمان بتأمين المصريين على أنفسهم وأهليهم وضياعهم . (سرور : ص٦٦)

نقض الأمان :

لم يعمل الفاطميون بعد انتقال الخليفة المعز لدين الله الفاطمي إلى القاهرة ٣٦٢ هجرية بكتاب الأمان ، بل تركز الاهتمام على تحويل المصريين إلى المذهب الشيعي باتخاذ مساجد عمرو بن العاص ومسجد أحمد بن طولون والجامع الأزهر إلى مركز للدعاية الفاطميين ، بل أدى انحياز الفاطميين إلى المغاربة والاعتماد عليهم في إدارة شئون دولتهم إلى استغلال نفوذهم في إلحاق الأذى بالمصريين ، فقاموا بنهب أملاكهم، واغتصبوا الدور وأجلوا السكان منها ، مما أدى بالمصريين إلى رفع شكايتهم إلى المعز، فاصدر أوامره بإخلاء هذه الدور والانتقال إلى عين شمس ، ولما آلت الخلافة إلى العزيز سنة ٣٦٥ هجرية عنى كابيه المعز بنشر المذهب الشيعي ، وحتم على القضاة أن يصدروا أحكامهم وفق هذا المذهب ، كما قصر المناصب الهامة على الشيعة ، وألزم الموظفين السنيين الذين تقلدوا بعض المناصب الصغيرة ، أن يسيروا طبقا لأحكام المذهب الإسماعيلي ، وإذا ما ثبت على احدهم التقصير في مراعاتها عزل عن وظيفته ، وكان ذلك

مما دفع الكثيرين من الموظفين السنيين إلى اعتناق مبادئ المذهب الفاطمي.

على الرغم من نقض العهد ، ونشر المذهب الشيعي ، ظل المذهب السني محتفظا بقوته في العواصم الثلاث رغم تحول بعض المصريين إلى المذهب الفاطمي، خوفا من تطبيق القوانين الجائرة التي فرضها الفاطميون على مخالفيهم في المذهب ، ويرجع سبب ذلك إلى أن الفاطميين رأوا حين دخولهم مصر واستقرارهم بها أن يتركوا الفسطاط حاضرة المصريين السنين ، وأن يتخذوا لهم حاضرة جديدة تكون مقرا لأنصارهم ، ودعاة مذهبهم ، كما أنشئوا لهم مسجدا خاصا، وأجازوا لأهل السنة في مصر إظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم ، فصارت تعاليم مذهب الأمام مالك ، والأمام الشافعي ، والأمام أحمد بن حنبل تدرس في دولتهم ، بل صاروا يراعون مذهب الإمام مالك ، ومن سألهم الحكم فيه ، ومن المذاهب التي لقيت تشجيعا عند الفاطميين مذهب الأمام ابى حنيفة لأنه مذهب العباسيين ، وظهر في العصر الفاطمي بمصر بعض علماء مذهب أهل السنة ، وكانوا يتلقون دروسهم في جامع عمرو بن العاص (سرور: ص٨٣-٨٤) ومع ذلك ظلت الفسطاط في نمو وازدهار حتى قدم مصر" أموري" ملك الصليبيين ونزل بجنوده على بركة الجيش يريد الاستيلاء على الفسطاط بالقاهرة، أي العاصمة الجديدة ، وأمر "شاور" الفاطمي أن يهجر الناس الفسطاط ويلحقوا بالقاهرة ، فارتحلوا وساروا بأسرهم إلى القاهرة العاصمة حاملين معهم ما خف حمله وثقل وزنه ، ونزلوا في القاهرة في المساجد والحمامات الأزقة والطرقات ، وأمر " شاور" بإحراق الفسطاط سنة ٥٦٤ هجرية ١١٦٨ م ، وشهدت النار تاتى على مساكن مصر لمدة أربعة وخمسين يوما ، أي مناطق العواصم القديمة ، فلما رحل " أموري" عن القاهرة ، أخذ الناس يعودون إلى الفسطاط ويصلون ما تلف من أبنيتها ، ولكن كان في مدة قاصرا على القسم الغربي فيها بين جامع

عمرو بن العاص وشاطئ النيل ، أما القسم الشرقي فكان مكانا للخراب حتى القرن الخامس عشر الميلادي ، واختفى اسم الفسطاط ودخلت العواصم كلها داخل اسم مدينة مصر التي تعرف حاليا بصر القديمة (مبارك: ص١٤، المقريزى: ص ١٤٣) وأصبحت القاهرة اسم العاصمة الشائع قديما حتى تاريخنا المعاصر .

اما بالنسبة لتغيير مقر العاصمة من الوادي إلى قلعة الجبل ، فقد ارتبطت بصلاح الدين يوسف بن أيوب الذي ينتسب إلى أكراد العرق ، وكانت علاقة صلاح الدين بمصر قد بدأت بقدومه مع عمه "أسد الدين شيركوه" سنة ٥٦٠ هجرية -١١٦٢م تلبية لاستغاثة الوزير" شاور" وانتهى الأمر بقتل المتصارعين شاور وضرغام ، وتولى امر مصر "صلاح الدين الأيوبي "، ولكنه في بداية الأمر واجه مقاومة من شيعة الفاطميين من المغاربة والسودانيين، ولكنة استطاع استئصالهم وتشتيت شملهم ، والقضاء على الشيعة، وإحلال المذهب السني .

لقد اتخذ " صلاح الدين الأيوبي" من القلعة مقرا للحكم بعد ان أحفها بسلطان العمران بعيدا عن كهوفها ومغاراتها كعادة الحكام بإزالة اثر من سبقوهم ، ولما كان من أهل السنة فقد آل على نفسه أن يطمس اثار الفاطميين ، فاستولى على قصورهم ، وأسكن ضباطه وجيشه وجيش أقاربه ، وأخمد ثورة الشيعة من المغاربة والسودانيين. والحقيقة أنه استعمل الشدة مع الفاطميين واتباعهم ، فطرد حرس الخليفة "العاضد" وكانوا من السودانيين إلى الخليج ، وأعمل فيهم القتل والذبح مدة يومين ، وأحرق ثكناتهم ، وكانت خارج باب زويلة ، في المكان الذي عرف بالمنصورية ، ودمج العواصم الأربعة في سور واحد يتحصن بالنيل والجبل يطل عليه مقر العاصمة الجديدة بقلعة صلاح الدين ، وبعد ان كانت القاهرة عاصمة الفاطميين جعلها لأفراد الشعب ، وشجع على سكنها وإقامة المنازل فيها ، فنقل الناس أنقاض بيوتهم التي تخلفت عن حريق

شاور من الفسطاط ، واستعملوها في تشييد بيوت عديدة ، ومع ذلك لم يستقر السلام في المدينة العاصمة ، فكانت دائما مسرح الصراع على سلطة الحكم، فقد كان عام ثلاثة وعشرين وتسعمائة هو عام المعارك الشرسة بين" طومان باى"، و"سليم الأول" ، والتي امتدت نيرانها إلى العباسية وبولاق ، وجهة النصر العالي ، وباب اللوق والسيدة زينب ومصر العتيقة والصليبية وقرة ميدان والرملية ، وحدث التغير ، وخرب لذلك الكثير من المساكن والقصور بالقاهرة والبساتين النضرة ، وجامع شيخون ، وجامع طولون وعدة جوامع وزوايا ، وصار القتلى مطروحين في الطرقات والشوارع والحارات (مبارك ص١٤٧) ، وهكذا صارت إحياء القاهرة ببيوتها وسكانها ضحايا الاقتتال بين المتصارعين من الغزاة على الاستيلاء على القاهرة العاصمة .

أسوار المدينة:

بالرغم من أن أسوار المدينة هي فعل إنساني للهيمنة على طبواغرافية المكان فى التحصين والدفاع ، إلا أن أبوابها لم تكن وظيفتها العبور فقط ، فقد كانت ترتبط بطقوس ومواكب الخلفاء والأمراء والجيوش ودخول قواد الغزاة ، وعلامة من علامة الاستفهام لمشانق الإعدام.

ويعود تاريخ أسوار القاهرة إلى دخول الفاطميين إلى مصر ، واتخاذها عاصمة للحكم ، وكان أول من بدأ بنائها جوهر الصقلى ، فأحاطها بالأسوار العالية على نمط أسوار مدن العصور الوسطى ، وكان للأسوار هدفان ، الأول: حماية المدينة ، والثانى: أنها وسيلة يحجب بها السلطان وحريمه وعبيده وحاشيته وحرسه الخاص عن أنظار المصريين الذين لم يكن يسمح لهم بدخول العاصمة الجديدة " القاهرة ".

إذن فقد كانت بمثابة مدينة ملكية ، ومن الطبيعي أن يرتبط

سور المدينة بأبوابه الحصينة ، وهو ما يتمشى في كل الأحوال. باستراتيجية الحماية لقصر الحاكم ، إلا أن ما يلفت النظر في كتابات المؤرخين أن هذه الأبواب كانت لها مراسم عند الحاكم والمحكوم. فكان السور عند بنائه له ثمانية ابواب جددها جمال بدر الدين الجمالي سنة ٤٨٠ هجرية ، و لم يبق من أثر لهذه الأبواب إلا ثلاثة ، هي: باب النصر ، وباب الفتوح ، وباب زويلة (عرف بهذا الاسم نسبة إلى قبيلة زويلة إحدى قبائل البربر التي جاءت من وهران من المغرب).

لقد وقفت أمام الأبواب الثلاثة وما تبقى من السور استرجع ذاكرة التاريخ لها وما شاهدته من أحداث المدينة ، فبالنسبة لباب النصر والفتوح (المطلان حاليا على حي الجمالية) كانت تعني فيما مضى خروج الجنود إلى الحرب من باب الفتوح والعودة من باب النصر ، وكان الخليفة الفاطمي يخرج من أحدهما في موكب الاستعراض إلى مصر – الفسطاط.

ومن شواهد" بن إياس" أن سليم الأول بعد أن انتصر على طومان باى في معركة الريدانية (العباسية) دخل من باب النصر واستمر سائرا حتى باب زويلة ، وعلى هذا الباب شنق" طومان باى" ، وظل معلقا عليه ثلاثة أيام إلى أن دفن بمدرسة السلطان الغوري.

ومن المفارقات أن اسم القاتل سليم الأول والمقتول طومانباى يحملان اسمي شارعين متوازيين بحي الزيتون !!!

وفى سنة ١٠٢٧ شهد بابي الفتوح والنصر اضطرابات عسكرية من جنود العثمانيين من الذين أبعدتهم الدولة عن الأستانة وأمرت بترحيلهم إلى اليمن عن طريق مصر ، إلا أنهم رفضوا هذا الأمر بحلولهم القاهرة فأغلقوا باب الفتوح وباب النصر ، وعملوا المتاريس بالطرق والشوارع ، واستولوا على كثير من المنازل ووقع بينهم وبين العساكر المصرية قتال عدة أيام ، حتى انتهى بخراب جهة الجمالية والخرنفش وباب الشعرية والحسينية ، وما جاور ذلك .(مبارك ج١ ص ١٤٩)

وأثناء الحملة الفرنسية كان سقوط ومقتل الكولونيل" سلكوسكى" ياور نابليون بباب النصر الذي جاء ليخمد ثورة المصريين الأولى من هذا المكان .

ولكن باب النصر يشهد هذه المرة دخول نابليون منه في أول ابريل ١٧٩٩ بعد انتصاره على المماليك في معركة العريش ، وأراد نابليون أن يستعرض قوته ، فأمر جنوده بالدخول والخروج من هذه الأبواب بشكل متعاقب للإيحاء بكثرة عددهم ، وبعد مغادرة نابليون لمصر تولى بعده "كليبر" الذي أعلن عن قيادته بدخوله من باب النصر، في استعراض للقوة ، وفرض آليات القهر على الناس من عصى القواس وسيوف الحراسة ، للوقوف أمام ركبة ، والأمر بالزينة ثلاثة أيام احتفالا بتنصيبه (الرفاعى ج ١ — ص ٥١-٦٩ ٧٧)

وهكذا تبدو الشواهد التاريخية للأبواب الثلاثة علامة فارقة بين الحاكم والمحكوم ، وما كان يتعرض له سكان القاهرة من تعسف وهوان.

بالرغم من أهداف السور ، والأبواب التي كانت غايتها من التشييد هو أمن الحكام في المدينة الفاطمية إلا أن الأمن الاجتماعي في المدينة أصابه الفوضى والاضطراب ، وهو ما أدى بالسكان إلى تنظيم مسئوليتهم الاجتماعية ، فأصبح أمن القاهرة يتشكل بحكم التضامن الاجتماعي بالجوار فيما بينهم ، فنشأ نظام الحارات بشكل عشوائي خالي من كل صلة تربطها ببعضهم ، بيد أن هناك بعض المؤسسات المشتركة التي كانت تعمل على الوحدة الاجتماعية بين أحيائها ، كما كان السور الحصين يحدد مجتمع المدينة ، فكان الجامع مركز الحياة الدينية ، كما كانت الأسواق مركز الحياة الاقتصادية ، هذا بجانب القيساريات والخانات التي تتصل اتصالا مباشرا بالسوق (ستيوارت : ص ٢١) ومع كل هذا كانت المدينة تعيش تناقض الجنسيات والثقافات للمستوطنين الفاتحين والغزاة والوافدين من المهاجرين والتجار وبهذا أصبحت مدينة

متعددة الجنسيات والثقافات.

المدينة متعددة الجنسيات :

لابد نتناول " ظاهرة تعدد الجنسيات" في البناء الثقافي للقاهرة العتيقة ، إن نضع في الاعتبار التطورات التاريخية لعوامل هذا التعدد في السياق التاريخي منذ الفتح العربي وجحافل جيوش الغزاة متعددة الجنسيات التي توطنت إحياء المدينة . وفى كل االأحوال نجدها حققت نموذجيين لأنماط ثقافيه لإنسان المدينة، الأول: نموذج المدينة المقسمة للتفرقة العنصرية ، والنموذج الثاني لمدينة الاستيعاب والامتصاص الثقافي.

فإذا ما نظرنا إلى النموذج الأول نجدها منفردة بخصائص سكانية متباينة بتباين الأحياء التي توطدت فيها بحكم تعاقب جنسيات الغزاة من أصول عرقية مختلفة وأوطان متفردة بحكم الولاء السياسي والمذهبي ، منها العرب واليمنيون والمغاربة والسودانيين والرقيين والأتراك والأرمن والمغول والمماليك الذين استقروا بعائلاتهم في احياء القاهرة في شبه عزله ، وهو ما ادى إلى معاناة المدينة من الصراعات فيما بينهم ، وضعف الدور السياسي والاجتماعي للمصريين في وطنهم.

وبالنسبة للنموذج الثاني كمدينة للاستيعاب والامتصاص ، فقد ارتبط بحركة التاريخ في نظم الحكم وفتراته ، ثم زواله ، وفى كل الأحوال يتبقى بعد هذا الزوال الأقليات ، ومع تعاقب الأجيال اندمجت هذه الأقليات في مجتمع المدينة، وانصهروا في عاداته وتقاليده ولهجته اللغوية ، فصهرتهم المدينة وأصبحوا مواطنين ، ولم يبق من تاريخهم إلا أسماء أسلافهم ، ولكي نوضح هاتين النقطتين ، ونجعل ملامحها اكثر وضوحا ، فعندما وحد "صلاح الدين الأيوبي "العاصمة في العصر الأيوبى دمج العواصم الأربع لتكون القاهرة عاصمة الدولة الجديدة التي ضمت الشام

والعراق ، ومع تولى الملك نجم الدين بن الملك الكامل سابع ملوك الدولة الأيوبية استكثر من شراء المماليك ، وجعل منهم أمراء دولة عرفوا بالمماليك البحرية ، وحدد لهم أماكن إقامتهم وسكناهم ، فكانت لهم في جزيرة الروضة قلعة قرب المقياس عرفت بقلعة الروضة ، وعلى ارض هذه الجزيرة بنى الدور والقصور ، وانشأ لها ستين برجاً ، وبنى بها جامعاً، ثم اتخذها دارا للملك ، وسكن فيها بأهله وحرسه ، وأسكن فيها مماليكه ، وكان بذلك يدعم خصوصية المدينة ، ويحصن المكان لسكنى حاكم الدولة واتباعه. (مبارك: ص ٨٣)

وبعد وفاته بالمنصورة أخفت "جاريته شجرة الدر" هذا الخبر ، وكانت أمةً تركية (جارية) تزوجها وانجبت منه خليل ، وكانت امرأة راجحة العقل ، وكثيراً ما عهد إليها "الصالح " بإدارة حكم البلاد وهو يحارب الصليبين ، ولما خشيت الاضطراب بين قواده أخذت البيعة لابن الملك "غيات الدين توران شاه " الذي قاد الجيش ضد الفرنسيين ، وهزم لويس التاسع ، وبدأت مظاهر الصراع بين مماليكه الذين شاركوه في الحرب ، وبين مماليك أبيه وهم ذوى أنفه وغطرسة ، يرون انفسهم أحق بملك مصر لما أحرزوه من نصر على الفرنسيين فقتلوه .

ولما رات شجرة الدر ما حل "بتوران شاه" تواطات مع "عز الدين أبيك التركماني" القائد العام للجيش ، وكان أقوى المماليك ، فأخذت لنفسها البيعة من الأعيان والأمراء لتكون أول امرأة تتولى الحكم في العصور الإسلامية . وأطلقت على نفسها "عصمة الدين أم خليل" ، ونقش اسمها على النقود ، ودعي لها على المنابر بعد الدعاء للخليفة ، وهذا نصه:

"احفظ اللهم الصالحة ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، ذات الحجاب الجميل ، والستر الجليل ، والدة المرحوم خليل المستعصمة، زوجة الملك "الصالح نجم الدين أيوب " ولم يستقم لها هذا الأمر طويلاً ، وعاب الخليفة " المستنصر" العباسي ذلك على أهل مصر ، فقد كانت شجرة الدر

إحدى جواريه قبل أن يشتريها "الصالح أيوب"، فخلعها المماليك ، وبويع "عز الدين أيبك" بالسلطة ، وتزوج من "شجرة الدر" ، وينسب إليها أنها أول من أرسلت المحمل من مصر إلى مكة وهذا المحمل عبارة عن هودج فاخر يحمله جمل طويل جميل ، وظل هذا الهودج يرسل خاليا مع قافلة الحجاج عدة سنوات تعبيرا عن الأبهة الملكية ، ثم أبطله الوهابيون في الحجاز (لين :ص ١٠٦) ، إلا أن شعورها بفقد مكانتها كسيدة أولى ؟؟ وسرعان ما دبرت لزوجها مؤامرة شارك فيها عبيدها في قتله وهو في الحمام ، فما كان من ابنه الملك "نور الدين على" مع توليه للحكم بعد أبيه ، إلا أن قبض على شجرة الدر ، وعهد بها إلى نساء بيته فنزلوا عليها ضرباً بالقباقيب ، حتى لفظت أنفاسها ، وألقى بجثتها على مزبلة ثلاث أيام خارج البر غير مستورة (شحاتة :ص ١٦١-١٦٢) .

وبهذه المناسبة وزعت "أم على " الحلوى المعروفة باسم أم على بعد قتلها ، وانتهى المطاف بجثتها لتدفن بمقبرة بالقرب من مسجد السيدة نفيسة ، وأصبحت الظاهرة هي امتلاك سلاطين المماليك لكرسي السلطنة على جثث السلاطين السابقين ، وأصبح من العرف السائد بينهم أن الأمير القاتل يعامل السلطان المقتول بأبشع الطرق .

أما مبدأ وراثة العرش فهو المبدأ الذي لم يقره مطلقا الأمراء المماليك ، بل تركوا تولىَ السلطة للقادرين على الوصول إلى هذه المكانة بقوتهم ، وبما يملكون من قوى المماليك الصغار الذين يشكلون القوى الرئيسية للوصول إلى هذا المنصب ، ويبقى الآن أن نغدو إلى الموضوع الأساسي الذي يرتبط بالنمو السكاني في القاهرة ، وهو لا يخرج من الصراع السياسي ، وتولى الحكام ، وشراء المماليك ، وتشجيع تملكها وتوطينها .

قد يبدو أهم ملامح هذه الهجرات تلك التي تدفقت على القاهرة من شرق العالم الإسلامي فراراً من المغول ، وتم تهيئة أحياء بأكملها لسكناهم، وهو ما حرص عليه "الظاهر بيبرس" فاعد منطقة بأكملها لتوطين

فرقة من جيش "هولاكو" قائد المغول الذي فر جنوده إلى مصر ، ولقد وصل عدد هؤلاء كما جاء في الخطط التوفيقية ما يزيد عن الف فارس بنسائهم وأولادهم من التتار ، وأنزلهم بارض اللوق (باب اللوق) ، وأكرم وفادتهم وأركبهم معه إلى الميدان للعب الكرة ، وأعطى كبراءهم إمارات ، ومنهم من جعله أميرا ، وأنزل بقيتهم منزلة البحرية ، وصار كل منهم في سعة الحال كأمراء عصره ، وبدأت تتوافد على القاهرة جماعات على التوالي ، فزادت العمائر بباب اللوق، ومن ثم يمكن القول أن باب اللوق اتسع فيه العمران في فترة حكم الملك الظاهر.

ليس من الصعب علينا أن نفسر زيادة النمو الحضري في قاهرة مصر بزيادة الهجرات الأخرى المتتالية في العصر المملوكي في فترة حكم "الملك العادل كتبغا المنصوري" بحضور طائفة من المغول المعروفين الأويراتية (٦٩٥ هـ / ١٢٩٥ م) ، جاءوا فرارا من ملكهم "غازان" بإذن السلطان "كتبغا" كما قدم غيرهم ، فإنه لما تغلب التتار على ممالك الشرق والعراق ، وحضر الناس إلى مصر نزلوا بالحسينية وعمروا بها المساكن ، ونزل بها أيضا امراء الدولة ، فصارت من أعظم عمائر مصر بالقاهرة واتخذ الأمراء بها من يحرسها فيما بين الريدانية (العباسية) إلى الخندق (قرية الدمرداش) ، وانتشرت فيها مناخات الجمال واصطبلات الخيل ومن ورائها الأسواق والأماكن الكثيرة ، وصار أهلها يوصفون بالحسن خصوصا لما قدمت الإيراتية فازدادت بهم العمارة . (مبارك: ص ٨٤ ٨٩) .

من هنا يبدو التركيز السكاني للمهاجرين في الأحياء المتميزة بالقاهرة بالرغم من اختلاف جنسياتهم وأحوالهم العرقية والثقافية ، في فترة "الملك الناصر محمد بن قلاوون" ويصفها "المقريزي" بقوله : واتصلت عمائر مصر والقاهرة فصار بلدا واحدا يشتمل على البساتين والمناظر والقصور والدور والرياح والقياس والأسواق والفنادق والخانات والحمامات والشوارع والأزقة والدروب والخطط والحارات والأحكار والمساجد والجوامع

والزوايا والربط والمشاهد والمدارس والترب والحوانيت والمطابخ والشون والبرك والخلجان والجزائر والرياض والمتنزهات ، متصلا جميع ذلك ببعضه البعض ، من مسجد تبر إلى بساتين الوزير قبلي بركة الحبش ، ومن شاطئ النيل بالجيزة إلى المقطم .(المقريزي : ج١ ص ٣٦٥) ، هذا بالنسبة للشكل الفيزيقى ، أما بالنسبة للحياة الاجتماعية فلم تكن الأحياء تخلو من فروق ثقافية ونزعة عقائدية وعنصرية .

الفصل الثالث

الوزن الديموجرافى والطابع الاقتصادي للمدينة

لا نستطيع فهم البناء الاجتماعي للقاهرة دون التعرف على عاملين أساسيين :

أولهما: وزنها الديموجرافى الذي استمدت منه المدينة أهميتها ، كما يمكن التعرف على مدى حجم عمرانها من أزقتها وحواريها وشوارعها وميادينها .

ثانيهما : الطابع الاقتصادى الذى ارتبط بسكانها الذين يدينون للسوق باحتياجاتهم من السلع الحياتية الضرورية والترفيهية التي لا غنى لسكان المدينة عنها ، بجانب ما يشكله السوق كمصدر حياتي للعاملين فيه ، فقد ارتبط معظم هؤلاء باتخاذ مساكنهم في دائرته الجغرافية . وعلى الرغم من الطابع الاقتصادي في تاريخ الأسواق إلا أننا يجب ألا نتجاهل الدور الاجتماعي الذي يسود بين أرباب الحرف وأصحاب الصناعات والتجار في المواقف المشتركة حرفياً واقتصادياً وسياسياً .

أولا: الوزن الديموجرافى للمدينة :

إن الوضع السكاني لمدينة القاهرة العتيقة هو من المعطيات المتعلقة بالأحوال الشخصية إن لم تكن مؤشراً في تاريخ النمو السكاني، هذا النمو في أي مدينة يرتبط بالايكولوجية الحضرية مفسرة لديناميات المدينة من ناحية التركز والتشتت وهما مفهومان يشيران إلى التغيرات التي تطرأ على توزيع السكان نتيجة الهجرة الوافدة ، أو التهجير القسري أو الزيادة الطبيعية للسكان

وإذا ما أمعنا النظر في التغييرات السكانية التي طرأت على القاهرة

العتيقة منذ الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر العثماني نجد متغيرات في الحراك السكاني بفعل الوافدين من جنسيات مختلفة ، أو نتيجة تدمير الحروب لأحيائها التي عانت منها بين صراعات الأمراء والمماليك وما ترتب عليه من الهدم والتدمير .

والواقع أن الهجرات التي وفدت إلى مصر أضافت إلى القاهرة زيادة في العمران والكثافة السكانية ، ومن الطبيعي أن تتواكب هذه الزيادة مع زيادة النمو العمراني للأبنية السكنية والمنشآت التجارية والورش الصناعية والخدمية ، حتى بلغ عدد السكان في القاهرة وحدها في النصف الأول من القرن الثامن الهجري حوالي ستمائة الف نسمة ، مما جعلها تتفوق في مساحتها وكثرة سكانها على كثير من دول اوروبا والعالم الإسلامي في تلك الفترة — وقد بلغ العدد السكاني الكلى لمصر في نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر حوالي ثلاثة ملايين على حد قول الباحثين الأجانب . أما بالنسبة لنصيب القاهرة من هذا النمو في عصر المماليك فيفسر إلى مرحلة الاستقرار في عصرهم الأول ، نتيجة لفترة السلام التي عاشتها القاهرة لأكثر من مائة عام بمعزل عن المذابح الجماعية خاصة تلك التي أفرزتها الهجرات التتارية الشرسة على الأراضي العربية ، وكذلك الهجرات السكانية العديدة التي وفدت إلى مصر من العراق والشام التي شملت عدة جنسيات من المغول والأكراد والتركمان مما كان يمثل زيادة طارئة في أعداد السكان ، يضاف إلى ذلك بقايا جيش الخلافة العباسية وبعض المحاربين الذين تجاوز عددهم بضعة آلاف.(قاسم:ص ٢٩) وفى هذا الصدد لابد أن نضع في الاعتبار حجم العبيد الذي كان يقدر عددهم في الفترة من ١٨٣٨م إلى ١٨٤٠ م بما يتراوح بين ٢٢ الف إلى ٣٠ ألف مقسمين بين ذكور وإناث من الزنوج بالإضافة إلى العبيد البيض. وقد أدى زواج المصريين والمماليك من نساء العبيد إلى تغيرات في الأنماط الأسرية وأصولها وأصبح

فيها هجينا لأجيال جديدة تمصرت مع مرور الزمن.(علاء :ص ٢٥ — ٢٦)

حينما ننظر إلى البيانات السابقة نجد أنها تقوم على تقديرات تصورية للرحالة والمؤرخين ، وبات ضروريا إيجاد معلومات ديموجرافية تعتمد على مؤشرات يمكن من خلالها إعادة تصور تركيب تاريخ سكان القاهرة ، وقد يكون الإحصاء الذي أعده "على باشا مبارك" حسب تعداد ٣ مايو عام ١٨٨٢ م أقرب إلى الحقيقة ، وكان عدد سكان القاهرة في ذلك التاريخ ٣٧٤,٨٣٨ الفا منهم الأهالي (٣٥٢,٤١٦) ، كما كان يقدر عدد الأغراب من أروام وفرنسيين وإنجليز ونمساويين وملطيين وأعاجم وإيطاليين وأجناس مختلفة من الأوروبيون بـ ١٩,٢٤٧ الفا ، أما العرب والمغاربة فكان تعدادهم ٢,٤٢٢ ألف نسمة، والملاحظ أن هؤلاء كانت لهم أحياء وشوارع يضفون عليها نزعتهم الجنسية والعقائدية .

الملاحظ أن هؤلاء الأغراب كانوا مصدر قلاقل ومشكلات أدت إلى امتيازات خاصة للأوربيين منهم ، ففي عام ١٥٣٥تعاقدت الدولة العثمانية مع فرنسا على عمل معاهدة تجارية بين السلطان سليم الأول وفرنسوا الأول ملك فرنسا ، وكان مضمونها تامين أرواح الفرنسيين وتجارتهم ، ومن ثم أصبحت فرنسا صاحبة الحق في حماية رعاياها ، وقد امتدت هذه الامتيازات إلى النمسا وانجلترا ، وكانت هذه المعاهدات نافذة على مصر بوصفها جزء من الدولة العثمانية ، وهذا ما برر دخول فرنسا إلى مصر لحماية رعاياها الفرنسيين من استبداد المماليك .

أعود مرة ثانية إلى تعداد أهالي القاهرة في سنة الف ومائتين وثلاثة عشر وبمقارنتها الخطط التوفيقية بالخطط الفرنسية ، نجد أن أهالي القاهرة حسب الإحصاء الفرنسي ٢٦٠,٠٠٠ الفا عام ١٢١٣ هجرية ، فتكون الزيادة التي حصلت في فترة ست وثمانين عاما مائة وخمسة عشر الفا ، فتصبح الزيادة في السنة ١٣٣٧ نسمة ، ويمكن إرجاع هذه الزيادة إلى سكنى الإفرنج بعد إنشاء السكك الحديدية واتصال قناة السويس بالبحر الأحمر ،

وتوزيع الغاز والمياه من خلال الشركات الأجنبية المتخصصة .

وفي إحصائية للوفيات التي أجريت عام ١٢٦٩ هجرية قدر من يموت من الأهالي بالقاهرة في متوسط العام الواحد ١٦,٣٠٠ نسمة من صغير وكبير ونساء ورجال وان نسبة الوفاة فيها اكثر ممن يموتون في القرى ، ويرجع ذلك إلى عدم استبقاء الشروط الصحية في المدينة ، هذا بالإضافة إلى وباء الطاعون الذي كان يشكل كارثة على سكان القاهرة ، وكان قد انتشر عام ١٨٠١ هجرية اثناء الحملة الفرنسية ، وزادت وطاته، فكان يموت في اليوم الواحد نحو مائة من الأهالي وعشرين من الفرنسيين ، ووصل إجمالي من مات في القاهرة وحدها ما يزيد على خمسمائة بالرغم من جهود الأطباء الفرنسيين ، ويصف "الجبرتي" انه كان يموت بالطاعون من الفرنسيين الذين بالقلعة ثلاثون وأربعون يوميا ويقدر الدكتور " لارى Larry " كبير جراحي الحملة الفرنسية ان هذا الوباء أودى بحياة مائة وخمسين ألفا من المصريين في القاهرة والوجه القبلي . (مبارك : ص ١٤٦) ، وبجانب ذلك انتشر وباء الجدري فتصدى له بحملة طبية في يونيو ١٨٢٥ للوقاية من هذا الوباء ، ومع ذلك كان اغلب من يموت بهذا الوباء من الأطفال ، فكان النصف من الأطفال ، والربع من الرجال ، والربع الآخر من النساء ، وكان مجموع من يموت جزءاً من ثلاثين من تعداد سكان المدينة ، بمعنى أن مقدار من يموت في السنة الواحدة اثنا عشر ألف نسمة ، فيخص اليوم الواحد نحو ثلاثة وثلاثين نفسا في المتوسط.

ومن الإحصاءات التي أجريت ابتداء من سنة الف ومائتين وتسع وستين إلى سنة الف ومائتين وثمانية وسبعين هلالية ، وهى مدة عشر سنين ، وكان المولدون بالنسبة لعشرة آلاف نسمة هو مائتان واثنان وتسعون ، وعدد المتوفين بالنسبة للعشرة آلاف أيضاً هو مائتان واثنان وعشرون ، فيكون الباقي من المولودين بعد المتوفين سبعين نفسا ، وهى الزيادة التي زادت بها العشرة آلاف في ظرف عشر سنين .

وفي إحصاءات العشر سنين التالية مقارنة بالعشر سنين السابقة عليها تصبح الزيادة من المولودين بالنسبة لعشرة آلاف من الأهالي ثلاثمائة وخمسة وأربعين، ومقدار المتوفى منهم مائتان وخمسة وخمسون، فيكون الباقي من المولودين في هذه المدة تسعين نسمة في كل عشرة آلاف من الأهالي ، ويكون متوسط الزيادتين ثمانين نفسا ، وعليه فزيادة سكان القاهرة في كل عشر سنوات كان يقرب من ثلاثة آلاف نفس ، وقدر من يموت في المتوسط في مدة السنة الشمسية ستة عشر الفا وثلاثمائة نسمة من صغير وكبير ونساء ورجال ، بمعنى أن من يموت في السنة جزء من اثنين وعشرين جزءا من مجموع السكان .

وبمقارنة هذه النتيجة إلى نتيجة ما قدره الفرنساوية في وقتهم يرى (مبارك) انها كبيرة جداً ، وأن عملية الإحصاءات لم تكن صحيحة ، فإن الشروط الصحية لم تكن متوافرة للسكان وأدوار الأمراض الوبائية متباعدة جدا بخلافها في الأزمان السابقة ، فإن أدوارها كانت متقاربة ، وتأتي كل أربع سنين مرة ، وكانت تحصد كثيرا من الأهالي .

ويستنبط من الإحصاءات الديموجرافية التي جرت في ظرف عشرين سنة ان اكثر من يموت واكثر من يولد يحصل في شهور الشتاء ، وهو نوفمبر وديسمبر ويناير ، ويبدو منها ايضا ان مقدار من يموت من القاهرة بالنسبة لسكانها أكثر ممن يموت في قري الريف ، ويظهر أن ذلك ناشئ من عدم استيفاء شروط الصحة في المدينة ، والغالب أن العفونات الحاصلة من روائح المراحيض هي أكبر أسباب الأمراض المستوجبة للموت ، ويستشهد مبارك على ذلك بما قدره الطبيب النمساوي "تودور " بالنسبة لتأثير الكوليرا والتيفود، فوجد أن هذين المرضين مصدرهما في المحلات القذرة العفنة ، وبمقارنة القاهرة بالمدن البريطانية وغيرها وجد ان هذه المدن قبل أن تعمل لمراحيضها المجاري بحسب الشروط الصحية كان يموت في العشرة آلاف فيها تسعة أشخاص ، وبعد أن تمت واستعملت

يموت في العشرة آلاف فيها تسعة أشخاص ، وبعد أن تمت واستعملت تناقص ذلك بالتدريج حتى يلغ ثلاثة أشخاص ، يعنى شخصا من كل ثلاثة آلاف شخص بعد ما كان شخصا واحدا في الألف.(مبارك : ص ٢٤٦).

<u>السكن و السكان :</u>

من المسلم به أن نواة المدينة هى السكن والسكان ، فبالنسبة للسكن فهو يعد الوعاء المادي للحياة الاجتماعية للمدينة ، وبالنسبة للسكان فهم يشكلون دورة الحياة بكل جوانبها فى تعاقب الزمان ، وبهما يرتبط الواقع العمرانى.

وهما جزء من تاريخ يمكن فهمه في إطاره الكلى ، وإذا نظرنا إلى الطراز العمراني في المدينة (العتيقة) نجد طابعه هو الطراز المعماري العثماني ، وظل هذا الطراز المعماري سائداً في المدينة Castello :p (11) ، ولقد جاء الاهتمام في العصر العثماني ببعض أحياء القاهرة مثل الأزبكية ، وبركة الفيل ، والجانب الغربي للخليج ، وقد ازدهرت بولاق بشكل واضح في هذا العصر ، وقد اتفق أكثر الرحالة الذين زاروا مصر في العصر العثماني أن شوارع القاهرة كانت ضيقة كثيرة التعاريج ، وكان أطولها الشارع الموصل بين باب الحسينية إلى باب السيدة نفيسة ، وطوله أربعة آلاف وستمائة وأربعة عشر مترا ، ولم يكن بالقاهرة سوى أربعة ميادين فسيحة هي(ميدان قرة ، وميدان الرميلة بجواره) ثم ميدان (بركة الفيل) وميدان الأزبكية (بركة الأزبكية نفسها) ، وهو ما يذكره "على باشا مبارك " في خططه ، إلا أنه حدد الباقي منها بميدانين هما :الرميلة والأزبكية .

وفي إحصائه للحارات والعطف والدروب والشوارع بعد الحملة الفرنسية وجدها ١٢٩٠ منها الحارات النافذة وغير النافذة مائة واثنان

وستون ، والعطف النافذة وغير النافذة سبعمائة وتسعة عشر ، والدروب النافذة وغير النافذة مائتان وثمانية ، والسكك أربعة وعشرون ، وفروع السكك ستة عشر ، والطرق تسعة عشر (مبارك : ص ٢١٦، ٢٤٦) . ويقدر كلوت بك عدد البيوت في القاهرة بحوالي ثلاثين ألفا ، منها البيوت العادية ، وبيوت وقصور الأثرياء ، وفى وصفه لهذه البيوت أنها كانت تتكون من طابق أو اثنين ، وعادة ما يسكن البيت أسرة واحدة ، وباب البيت يكون عادة مصنوعا من الخشب وله مزلاج خشبي وقارع من الحديد ، وبالقرب من المدخل يوجد مقعد من الحجر يجلس عليه سايس(حارس) ، وداخل المنزل غالبا ما يوجد صحن داخله تتوافر فيه ميزتان، إحداهما إدخال الضوء والهواء في حجرات الدار ، والثانية الاستفادة بما حوله من امكنة في اقتناء الماعز والدجاج وحيوانات النقل كالخيل والحمير، وقد يكون فيه طاحونة وفرن ومسكن للخدم وحجرة استقبال الزائرين، كما يوجد فيه بئر لاستخراج الماء اللازم للأغراض المنزلية وشرب الحيوانات ، وتطل على الشارع وعلى أفنية المنزل مشربيات تحجب الأنظار عما بداخله ، وتستخدم لوضع أنية من الفخار لتبريد ماء الشرب ، المهم أن بيوت هذه الحارات والدروب كان يحكم مداخلها بوابات ، ومن ثم تصبح هذه الأماكن وحدات اجتماعية تتشابك فيها العلاقات الاجتماعية والتكافل الاجتماعي. والمشاركة في المناسبات المختلفة بأفراحها وأحزانها ، وكانت الحارات تخضع لسلطة مشايخ لها ، وكان يعاون شيخ الحارة نقيب أو أكثر ، كما كان يساعده على أداء واجباته ، كما كان يفعل مشايخ الطوائف الحرفية ومن ثم كان هناك تعاون بينهم ، وأحيانا كان شيخ الحارة هو نفسه شيخ الطائفة .

كان ضمن واجبات مشايخ الحارات إحصاء النفوس من أبناء احيائهم ، كما كانوا مسئولين عن أي اضطرابات تنشأ فيها ، وعندما فكر الفرنسيون إحصاء المولودين والمتوفين أوكلوا هذه المهمة إلى مشايخ

الحـارات وعـاونهم في ذلـك القـابلات والملحـدين (الحانوتيـة) ، وبالنسـبة للانضباط الأمني كان اغا الانكشارية يمارس دور الشـرطة نهـارا في الوقـت الذي كان يقوم فيها الوالي بدور الشرطة ليلا ، وفـى كـثير مـن الأحـوال كـان يعطـى نفسـه مهامـا أخـرى بالإضافة إلى واجباتـه في حـل مشـاكل المرور في شـوارع القـاهرة ، وإزالـة بعـض الأتربـة المتراكمـة في بعـض الجهـات ومصاطب الدكاكين التي تعوق الطريق ، وكانـت وظيفـة والى القـاهرة اقـل مرتبـة مـن الأغـا ، والشـيء الملاحـظ أن شـرطة القـاهرة في هـذا الوقـت كانت بجوار باب زويلة ومقر سكن الوالي ، ويذكـر كتاب وصـف مصـر وبوابـة الـوالي (وهـو مـا يطلـق عليـه المتـولي) حيـث كـان يقـوم بحراسـة الجنود ، وكان في شارع صغير يؤدى إلى قصبة رضوان إلى اليسـار .(زكـى :ص ٤٩٩)

إلا أن الحملـة الفرنسـية بعـد ثلاثـة أشـهر مـن وصـولهم إلى القـاهرة بـدءوا في الـتخلص من البوابـات الـتي كانـت تشـكل حـواجز تمـنعهم مـن دخـول الحـارات ، وبـذلك حـاولوا إفـراغ الأحيـاء مـن تضـامنها الاجتمـاعي ، وهو ما تحقق لهم للوصول إلى عمق الأحياء ، ثـم اتجهـوا إلى هـدم الأبنيـة ، وشرعوا في بنـاء حيطان وكرانك وأسوار ، ولم يكن الهـدف إعـادة تخطـيط المدينة بقدر ما كان تحصينها ضد المماليك والعثمانيين .

أما بالنسبة للتنظيـم الإداري فقـد قسموا المدينـة إلى ثمانيـة أثمـان " أحياء" لسهولة الضبط والربط ، فكان لكل ثمن شيخ حـارة لـيس لـه مرتـب من المحافظة ، وإنما مكسبه يكون مـن النقـود الـتي يأخـذها برسـم الحلـوان من سكان الأملاك التي في شـياخته ، وكـثيرا مـا كانـت تسـتعين الحكومـة بهؤلاء في توزيع الفرد والطلبات ، فمـن هـذا أنـه كـان رمـز السلطة وعليـه تنفيـذ قراراتها ، وفى ضوء تنظيم المدينة إلى أحيـاء فقـد قسمت إلى أثمـان تحددت بأحياء الموسكي والأزبكية وباب الشعرية والجمالية والدرب الأحمـر والخليفة وعابدين والسيدة زينب ومصر العتيقة وبولاق ، وكـان في كـل

ثمن (قرة قولا) قسم بوليس وبيت للصحة وبه حكيم وحكيمة وتمرجي للكشف على من يموت وتطعيم الجدري ، ومعالجة بعض المرضي وإعطائهم بعض الأدوية ، وقيد من يولد ومن يموت في دفاتر مخصوصة ترسل لديوان الصحة ، وإخبار بيت المال بمن يموت ، كما يخبروه عن جميع حوادث الصحة ، وفي كل ثمن ايضا معاون وكاتب وبعض عساكر وهم تابعون لديوان المحافظة ، ووظيفته النظر في المنازعات والخصومات فيها مما يمكن صرفه بالمصالحة وإلا أرسله إلى جهات الاختصاص .(مبارك : ص ٢١٦ ، ٢١٧).

لا نستطيع أن ناخذ الأرقام وحدها التي تحدث عنها "مبارك" دون النظر إليها في حركة المجتمع وتفاعله ، فالأزقة والدروب والحواري والشوارع هي انساق لجماعات سكانية يتفاعلون فيها في حياتهم اليومية ، تجمع فئات عمرية متباينة، وطبقات لها مكانة في السلم الاجتماعي للمدينة ، وكان لهم مواقف مشتركة في أحداث القاهرة ، ونتائج مشتركة منها دمار بيوتهم وحراكهم الفزعى ، وهو ما أدى إلى تغير الخريطة السكانية في المدينة .

والواقع ان شيخ الحارة كان له دور الاتصال بين سكان الحارة والأثمان ، فهو يمثل عندهم رمز السلطة وآلية تنفيذ قراراها ، كما كان يلعب دورا آخر في عملية الضبط الاجتماعي ، اما بالنسبة لأثمان القاهرة وما فيها من خدمات فالواقع انها لم تكن كافية في مواجهة الرعاية الصحية للمرضي ، ومواجهة انتشار الأوبئة ، وهو ما أدى إلى شيوع وزيادة الوباء والأمراض والاعتماد على الخرافات في علاج الأمراض والأوبئة .

على الرغم من الأوبئة العديدة التي اصابت سكان القاهرة إلا أن العوامل المسببة كان من اهمها التلوث البيئي الذي ظل قائما إلى نهاية العصر العثماني، فكانت الأزقة والحواري موطن إلقاء القاذورات بالإضافة إلى ركام التلال حول القاهرة ، وكانت التلال الصناعية التي تقصف

الرياح بأتربتها ورائحتها المتعفنة مما يؤدى إلى انتشار الأمراض الصدرية والجلدية والعيون ، بجانب ذلك كانت المساكن تقام على غير انتظام فلا تدخلها الشمس مما يزيد من رطوبتها وتوليد الأمراض منها .

على أية حال فإن زيادة انتشار الأمراض بين سكان القاهرة كان يرجع إلى قلة الأطباء في مواقع الأثمان ، فكان المرضي يلجئون إلى الوصفات الشعبية التي تصفها العجائز وعلى أقوال الدجالين والمشعوذين ، فإذا مرض إنسان ذهب أهله إلى ضارب الودع وحساب النجم ، وقياس الأثر ، وكتابة الأحجبة ، أو بجرده باللسان والجلد وتعليق الخرز ، وكان لكل مرض خرزة يزعمون أنها لكل واحدة منها آية في العلاج ، فللعين خرزه حمراء يسمونها البدلة ، وللرقبة خرزة بيضاء مصغرة تسمي خرزة الرقبة ، ولهم أحجار يحكونها للخضة (الفزع) ، وللحمي حجر يطلقون عليه حجر الشفاء ، وفي حالة لسع الزواحف حكوا له بالخرتيت ، أو فصا يسمى فص العقرب وغير ذلك .

وإن كان هذا الحال بالنسبة لعلاج المرضي بالدجل ، فإن المثير هو دفن الموتى في منازلهم وفي المساجد أو المدارس ، وكان هذا الدفن له علاقة بالسلطة السياسية للأمراء والمكلفين من قبلهم. (مبارك: ١٩٨، ١٩٩)

والواقع أنه حدث نوع من التغير في طبوغرافية المدينة بعد أن تحررت من التلال والمستنقعات منذ بداية الحملة الفرنسية ، كما كان لمحمد على أيضا جهوده في حل مشكلة البرك والمستنقعات وردمها ، وكانت تزيد عن ثمانية في أنحاء القاهرة ، كما قام بالتخلص من باقي التلال التي تحيط بالقاهرة ، وكانت مكامن للأوبئة والأمراض ، بالإضافة إلى نقل المقابر من وسط المدينة (سمير : ص ١٠٦) وهو ما ساعد على إعداد المدينة للتخطيط العمراني ، والتخلص من مصادر الأوبئة التي كان يعانى منها السكان .

ثانيا: الطابع الاقتصادي

من المسلم به أن أسواق المدينة تعد نسقا اقتصاديا في بناء المدينة يتسم بالحركة التفاعلية اليومية للبيع والشراء وطبيعة العرض السلعي الذي يحدد خصائص رواده ، وفي نفس الوقت كانت الأسواق مصدرا من مصادر الدولة في جلب الضرائب ، وأحيانا ما تتجاوزها إلى فرض الإتاوات ، ومن ثم كانت الأسواق مصدرا للقلاقل والصراع بين صغار التجار وعساكر الولاة ، وأحيانا ما تتجاوز حدة الصراع إلى الإضرابات رفضا للضرائب ، وفي كل الأحول كانت الحارات النافذة من الأسواق إلى جامع الأزهر تشكل قمة الحشد الفاعل وتعلو فيه أصوات احتجاجات المتظاهرين ضد فرض هذه الضرائب .

وإذا ما نظرنا إلى واقع الأسواق ووضعها في تاريخ المدينة العتيقة نجد أن المؤرخين حددوا أماكنها ووصفوا خصائصها ، ونوع العمالة التي تمارس نشاطا تجاريا بمختلف فئاتها.

ومن الحقائق المألوفة أن النشاط الاقتصادي في المدينة كان يرتبط بزيادة عدد الأسواق والدور التجاري لكل سوق منها ، ساعدها على ذلك موقع موانيها على النيل وخليج أمير المؤمنين ، واتصاله بالبحر الأحمر ، وما كان لهذا الموقع من أثر في تحديد مجريات التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي بحكم اتصالها بالعالم الخارجي ، ومن الحقائق التاريخية أن القاهرة لم تفقد شهرتها التاريخية كسوق تجاري منذ تشييد الفسطاط كعاصمة للبلاد ، وظلت هذه الشهرة ممتدة كسوق مركزي للقطائع والعسكر بل القاهرة الفاطمية ، ويستدعى "ابن خلدون" رؤيته للقاهرة في كتاباته في وصف النيل وازدحام الناس في الحارات، إلا أن أسواقها أبهرته بما فيها ، وبالمناسبة لم يأت ابن خلدون بهذا الوصف من فراغ ، فكان من سكان بين القصرين في حي الأزهر وحى الروضة (وافى : ص ١٣٧) .

لقد لاحظ "الجبرتي" أيضا علاقة الأسواق بازدحام الشوارع بالدواب

التي تحمل البضائع وكثرة الجمال والخيول والحمير التي يتقدمها الأوسية لإفساح الطريق أمامها حتى لم تخل العطف الضيقة من هذه الحركة والازدحام ، وكان المبرر لكل هذه الحركة التجارية ارتباطها بالأسواق وحركة التجارة ، وقد اهتم "ابن بطوطة" في تناوله لحركة التجارة الداخلية في مصر بقوله ٠ وأن بنيل مصر من المراكب ستة وثلاثين الفا للسلطان والرعية ، تمر صاعدة إلى الصعيد ، ومنحدرة إلى الإسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات ، كما ذكر" ناصر خسرو" انه كان للباعة بالقطاعي دكاكين بمدينة مصر " الفسطاط " على ساحل النيل ، وكانت البضائع تفرغ على أبوابها ، وكان الازدحام من الشدة بحيث كان يستحيل نقل البضائع على ظهور الدواب ، فالأسواق كانت مليئة بمختلف السلع والمتاجر ، فقد بني " عبد العزيز بن مروان ٠ قيسارية العسل ، وقيسارية الخيل ، وقيسارية الكباش ، وقيسارية البز (المنسوجات) ، وفي وصفه للقاهرة أسهب "ناصر خسرو" في الكلام عن الفسطاط وبيوتها الشاهقة وجوامعها الكبيرة ، وحدائقها الغناء ، وصناعتها الزاهرة ، ووصف الثروة في أسواقها ، والازدحام فيها ، وقال إن الحوانيت مملوءة بالسلع المختلفة ، والأقمشة الثمينة والذهب وسائر الحلي ، حتى أن المشتري لا يجد فيها محلا يجلس فيه ، وكان "خسرو " شديد الإعجاب بسوق القناديل بجوار جامع عمرو ، فقال إنه لم يعرف مثله في أي بلد آخر، وأن التحف النادرة والثمينة كانت تحمل إليه من أنحاء العالم كله ، وترجع هذه التسمية إلى ان سكان هذا الحي كان لكل منهم قنديل على باب سكنه . (شحاتة : ص ٢١٥) .

ومن الواضح من تصورات "خسرو" ان أسواق القاهرة كان لها دور في استيراد السلع الأجنبية ، معنى ذلك ان ثمة تبادل تجاري بين تجار القاهرة والأسواق الخارجية وهو ما يعكس أنواع البضائع والسلع التي تغمر بها الأسواق ، وفضلا عن ذلك يمكننا الاستشهاد بما كانت عليه قاهرة

الفسطاط من أسواق ، وأنشطتها التجارية وموقعها ، وهو ما تناوله "المقريزي" في عصره، وما تضمنته خططه حول القصبة وهى عنده تعنى أعظم أسواق مصر، وكان القصبة تحتوى على اثني عشر ألف حانوت ، وهى تمتد من أول الحسينية مما يلي الرميلة (القلعة) إلى المشهد النفيسي ، وقد أدركها أحد المعمرين في عصره ووصفها بأنها عامرة بالحوانيت ، غاصة بأنواع المأكولات والمشارب ، والأبنية يعجب الناظر لهيبتها ، وهو في ذلك يشير إلى أنها خاصية حضارية للترف . (المقريزي : ج٣ ص ٩٤-٩٥) .

الملاحظ وهو ينقل عن أحد المعمرين سخاء تقديره المبني على الانطباع دون تقدير إحصائي أو منطقي.

ونظرا لتعدد الأسواق اقترن كل منها بخصائص تجارية كالغورية حيث تباع الشيلان الكشميري والحرير واقمشة وارد الخارج ، لقد ظلت شهرة هذا السوق إلى تاريخنا المعاصر وقد تناولته أغنية شعبية تقول: (يارايحين الغورية هاتوا لحبيبي هدية .. الطرحة ويا الشال وإسورة وخلخال) وهذا يعني شهرة الغورية التاريخية بالاحتياجات والهدايا المحببة للنساء ، كما اشتهر سوق الإشرافية بتجارة الورق ، أما الأسواق التي ذاع صيتها فكان خان الخليلي الذي اشتهر بصناعة المجوهرات وبيعها ، وبيع منتجات النحاس ، وسوق الصنادقية الذي كان يختص بصناعة الصناديق والأسرة ، وكان يسكن فيه " الشيخ حسن الجبرتي الأب" الذي كان له اهتمامات بالعلوم التطبيقية التي ذاعت بها شهرته بجانب علوم الدين ، حتى أن الأجانب حضروا إليه ليتعلموا على يده ، وقد أشار المقريزي إلى مدى إقبال العامة على الشراء حتى أنهم كانوا يتنقلون بين الحوانيت من كثرتها ، وهو ما أدى بأصحاب المتاجر إلى أن تظل مفتوحة حتى منتصف الليل ، وفي نفس الوقت يصف ما آلت إليه هذه الأسواق بقوله فاختل حال القصبة وخرب وتعطل أكثر مما تشتمل إليه من

الحوانيت بعدما كانت مع سعتها تضيق بالباعة فيجلسون على الأرض في طول القصبة بأطباق الخبز وأصناف المعاش ويقال لهم أصحاب المقاعد ، وكان يتعرض لهم الحكام لمنعهم من إقامتهم في الأسواق لما يحصل منهم ضيق في الشوارع وقلة بيع أرباب الحوانيت .

ويتناول سوق خان الرواسين على أنه من أحسن أسواق القاهرة فيه حي من البائعين ، ويشتمل على نحو العشرين حانوتا وقد اختل وتلاشى ، ثم وصف حارة برجوان التي عاش فيها في صغره وكان يعرف أيام الخلفاء الفاطميين بسوق أمير الجيوش ، ويصف شواهده في حارة "برجوان" فيقول : أدركنا سوق حارة برجوان أعظم أسواق القاهرة، وما برحنا ونحن شباب نفاخر بها سكان جميع حارات القاهرة ، وكان بها حمامان وفرنان ، ولها السوق الذي لا يحتاج ساكنها إلى غيره .

الواقع أن "المقريزي" افاض في ذكر الأسواق منها سوق الشماعين الذي يقع مابين الجامع الأقمر إلى سوق الدجاجين المغمور بالشموع المركبة والفانوسيه والطوافات ، وتظل حوانيته مفتوحة إلى نصف الليل وكانت أبهى مظاهر الشموع في موسم الغطاس ، وكان في شهر رمضان موسم عظيم لكثرة ما يشترى فيه ، ويستخدم بعد صلاة التراويح .(المقريزي : ص ٩٤-٩٥) .

إننا لا نستطيع أن نجهل علاقة الشموع بفوانيس رمضان التي أسهمت في زينة القاهرة بمساجدها وأسواقها ، كما كانت تشكل مظهرا فلكلوريا في حركة الأطفال حينما يحملون الفوانيس بشموعها المضيئة بعد صلاة التراويح ويترددون على بيوت الحارة الدروب ويغنون بشكل جماعي وحوى يا وحوي .. إياحا وكمان وحوي .. إياحا .. رحت يا شعبان جيت يارمضان .. وحوينا الدار وحوي يا وحوي .. إياحا .. إدينا العادة رب خليكوا .. الخ ، وهناك أغنية اخري تقول : " حاللوا يا حاللو رمضان كريم ياحاللو .. فك الكيس وادينا بقشيش يانروح ما نجيش يا حاللو ..

ومـن الطبيعـي ، وبحكـم الجـوار وعلاقـة الصـداقة بـين أبنـاء الحـارة والدرب كان سـكان البيـوت يسـتجيبون للصـغار ويوزعـون عليهم بعض من ياميش رمضان والحلوى ، وعلى الرغم من هـذه العـادة إلا أنهـا تنطـوي على علاقات الذكريات بين صغار الأمـس ، كمـا أنهـا علـى البعـد الـزمني تؤسس فكرة التنشئة الاجتماعيـة لرفـاق الشـارع أو الحـي ، وهـو مـا يطلـق عليهم مجازاً أولاد الحتة .

أعود إلى وصـف " المقريـزي " لبـاقي الأسـواق الـتي لهـا علاقـة بأهميـة دواب الركوب في ذلك العصر ، وما تعكسه من قيمة في المستوى الاقتصادي والاجتماعي ، وهو ما يبدو في حديثه عن سـوق اللجمـيين ، فنجـده يصـف المعدات الجلديـة الـتي تسـتخدم في ركـوب الخيـل ، وصـناع الطـلاء والكفتـة والسروجية وأدواتها ، لكن في نفس الوقت يصـف متطلبـات ركـوب الخيـل بالمسـتوي الاقتصـادي في اسـتخدامها ، فيشـير إلى سلاسـل الفضـة المطليـة لركوب الأعيان وأكابر الكتاب من القبط ورؤساء التجار ، كما خصصت السروج المفتخرة لركوب القضاة ومشايخ العلم .

هذا التحليل يفسر بوضوح ما كان عليه المستوي الاقتصادي لإنتـاج مسـتلزمات معـدات ركـوب الخيـل والطبقـة المتميـزة في المجتمـع ، وهـذا يدفعنا إلى التحول نحو فئات أرباب الحرف والصناع في مجال تجـارة الخيـل والبغـال مـن حيـث احتياجـات هـذه الـدواب مـن الأدوات والغـذاء والرعايـة الطبية والتدريب ، أو من حيث استخدامها في وسائل النقل البرى مـع غيرهـا من الجمال والحمير ، ومن المعروف أن تجارة الخيل كانت واحـدة مـن أهـم مصادر الثروة خاصة للأعراب الذين برعوا فيها ، وحققوا من ورائها ثروات مالية طائلة ، معتمدين في ذلك على شدة حاجـة الدولـة للخيـول في الحـرب والسلم ، وكانت أسواقها تزدحم بجمهور مـن الـدلالين والسـياس والمنـادين وغيرهـم مـن المسـتخدمين في رعايـة شـئون الخيـل ، والـذين كـانوا محـل اهتمام السلاطين ، ولما غلب على الناس الفقر وكثرت الفتن نـدرت سـروج

الذهب والفضة ، وبقي منها في نهاية العصر المملوكي بقايا يركب بها الأعيان والأمراء وأمراء المماليك . (المقريزي : ص ٩٨).

ويزيد على وصفه لسوق الحلاويين الذي كان في تصوره من أبهج الأسواق ليسع ما يتخذ من السكر في صناعة الحلوى ، وكانت معداتها هي الأواني النحاسية ثقيلة الوزن ، ونظرا لغلاء السكر لخراب الدواليب التي كانت بالوجه القبلي ، وخراب مطابخ السكر التي كانت بمدينة مصر مات أكثر صناعتها ، كما يشير في نفس الوقت إلى صناعة مناخل الدقيق والغرابيل (وبجانبهما صناعة المجبرين) .

ومازال هذا السوق معروفا بصناعته حتى تاريخنا المعاصر ومن طرائف ما تناوله "المقريزي" في خططه سوق الدجاجين وكان يباع فيه الدجاج والإوز والعصافير، وكان الباعة يخدعون الصبية في شراء العصافير بترويج دعاية أن من اشترى عصفورا وعتقه دخل الجنة فازداد الطلب وراجت تجارة العصافير ، وبجانب هذا كانت تباع أنواع أخرى من العصافير والطيور ، وكان يعقد سوقها كل جمعة يباع فيها الطيور المسموعة من الببغاوات والسمان بأسعار عالية (المقريزي : ص ٩٦ ،١٠٠) ، وبهذه المناسبة مازال يعقد مثل هذا السوق كل يوم جمعة وأحد في مدخل شارع الخليفة بحي الخليفة .

إن النشاط التجاري للأسواق لم يكن يمارس في المحلات والدكاكين بقدر ما كان هناك باعة يمارسون عمليات البيع بشكل فردي على اقفاص ، ويطلق عليهم ارباب المقاعد ، وكانوا يستاجرون الأرض بشكل رسمي على الرغم من أن أرباب المقاعد وجدوا اعترافا ، إلا أن ثمة فئة أخرى كانت تفترش أرض الأسواق لعرض بضائعهم بغير ترخيص ، في حين كان البعض الآخر يتجول بما يحمل من بضاعة في الشوارع والأزقة البعيدة عن الأسواق ، فكانت تخرج لهم النسوة للشراء ، كما كانت الدلالات يدخلن بيوت الصفوة لعرض بضائعهن على ربات البيوت في

المنـازل ، والواقـع أن الـدلالات لعـبن دورا اقتصـاديا واجتماعيـا بـين تحقيـق احتياجات النساء من أقمشة وترويج بضائع أصحاب المحلات، بجانـب ذلـك لعـبن دور الاتصـال بـين الأسـر كخاطبـة ، وربمـا يرجـع ذلـك إلى استحياء بعـض نسـاء الأعيـان مـن الخـروج إلى الأسـواق ، المهـم أنـه كـان مـن أبـرز المترددات على الأسواق العامة من النساء الدلالات ، كما كانت نساء العامـة غالبا ما يترددن على الأسواق في مناسبات الأعياد والمواسم لشراء مايلزم مـن السلع الغذائيـة والكسائية والترفيهيـة ، وكـان مـن عـادة هـؤلاء النسـاء أن يساومن الباعة ويمازحونهم جلباً لأفضـل السـلع والأسعار ، وهـو مـا كـان يراه الباحثون الأجانب نوعاً من اللغو لا طائل من ورائـه وإضاعة للوقـت ، ومما يدل علـى كثـرة خـروج النسـاء في العصـر المملـوكي كثـرة المراسـم الـتي تمنـع خـروجهن في أوقـات معينـة ، وكثـرت إشـارات الاستهجان مـن جانب المعاصرين لهذه الظاهرة ، وهى زحمـة النسـاء في الأسـواق وجلوسـهن على أبواب الحوانيت. (علاء : ص ١٣٤).

وأشـار "المقريـزي" إلى مـدى إقبـال العامـة مـن الرجـال علـى الشـراء في الأسواق بالقاهرة حتى كانت الدكاكين تفتح إلى منتصف الليل .

بعـد ذلـك لا نستطيع أن نغفـل مناقشـة طبيعـة العمـل في الأسـواق ، .واحتياجات أصحاب المحلات الصغيرة والحرفيين والمشتغلين بالخدمات فيهـا ، فهؤلاء الـذين يمتـد عملهم إلى فـترات تمتـد إلى منتصف الليـل ، وأقصـد بـذلك حرفـة صناعة الأغذيـة ، وكـان أبرزهـا حرفـة الطبـاخين والشـوايين والخبـازين واللبـانين والزيـاتين والخضـريين وغيرهـم ، ومـن الطبيعـي أن تـرتبط هذه الحرف بحركـة باعـة الأطعمـة والأشـربة إلى زبـائنهم ، ولكـن كـان مـن أهـم هـذه الصـناعات صـناعة الخبـز الـتي تشـمل الطحـانين والعجانين والقطاعين والفرانين ثـم باعـة الخبـز المتجولين ، وكانـت هـذه الحرف تخضع للمحتسب ، وكان الاحتساب من الوظائف الدينية ، ذلك أن صاحبها كان مكلفا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والواقـع أن صناعة

الخبز تعد من الصناعات الضرورية للحياة المعيشية للناس ، والمؤكد أنها من الأولويات التي يوفرها الحاكم للشعب ، وفي نفس الوقت كانت المخابز تقدم أصنافا متميزة للخاصة ، من ناحية نوع الدقيق وخدمة الصنعة ، وهو ما لم يكن يستطيع العامة شرائه ، خاصة في وقت الأزمات ! ولعل من أبرز المشكلات الاقتصادية التي تواجه شعبا ما ما يتصل بأساس معيشته وهو رغيف العيش ، فضلا عن ذلك فإن من أساسيات اقتصاديات الدولة توفير احتياجات الناس من المواد الغذائية قبل كل شئ ، وهو المؤشر الذي يكشف عن حقيقة علاقة الدولة بالمجتمع ، ويصف "السخاوي" حالة الخبز في النصف الأول من عصر سلاطين المماليك أنه كان من الكثرة والجودة حتى بلغ الإنتاج اليومي لهذه الصناعة نحو سبعة آلاف رغيف ، بينما انخفض الإنتاج بنسبة كبيرة وشح الخبز من الأسواق في النصف الثاني من هذا العصر ، أي العصر المملوكي ، وهي فترة انهيار الدولة .

ويرى المعاصرون لأزمة رغيف الخبز في عصر المماليك الجراكسة ، أنها قد تأثر بها الأغنياء مثل الفقراء ، وأن الأفران كانت تزدحم بكثرة بالعامة للحصول على الخبز الذي عز وجوده في الحوانيت ، مما كان يُحدث نوعا من الشغب أمام أماكن البيع ، وربما دفع أحد العامة حياته ثمناً لرغيف الخبز . (علاء : ص ٩٥ — ٩٦).

الوكالات والخانات:

يمكن فهم بعض الحقائق عن العلاقة الاقتصادية والاجتماعية التي تخدم حركة البيع والشراء والتبادل السلعي بين الصادرات المصرية والواردات الأجنبية إذ ضمت الأسواق في هذا العصر كثيرا من الوكالات التي كانت أشبه بالمبني التجاري الكبير لتخزين البضائع التي تباع لصغار التجار (تجار التجزئة) الذين يقومون بدورهم ببيعها مرة أخرى والحصول على فارق الربح ، كما تستخدم لإيواء التجار في المساكن التي

تعلو المخازن ، وهى مبنية بطريقة تساعد على حرية الحركة ومواجهة الظروف الطارئة مثل الحرائق وأعمال التخريب أو السرقة والنهب ، إذ يكون للوكالة باب عام واحد له حارس ويغلق هذا الباب ليلا، ومن أمثلة هذه الوكالات وكالة قوصون في زمن "السلطان الناصر محمد بن قلاوون" ، ووكالة الغوري التي انشئت في عهد "السلطان قنصوه الغوري" سنة ٩٠٩ هـ / ١٥٠٣ م وكان يشغلها كثير من صغار التجار والباعة، فضلا عن بعض عامة القاهرة والمدن الأخرى الذين يرغبون في الشراء أو مشاهدة البضائع بها . (علاء : ص ١٠٨)

ومن المنشآت التي اهتم بها سلاطين المماليك أيضا الفنادق والخانات لإيواء التجار الأجانب وتوفير كافة سبل الراحة لهم ، وكان يوجد بها عدد كبير من عامة القاهرة من "الحمالين" لنقل البضائع منها إلى اي مكان لقاء أجر زهيد ، وكان الفندق يضم في أسفله عدد من الحوانيت المخصصة لصغار التجار الذين يرغبون في شراء البضائع المستوردة لإعادة بيعها مرة اخرى في أسواق القاهرة .

ويبدو أن الوكالات والفنادق والخانات كانت جميعها ذات أغراض مشتركة تتصل بتخزين البضائع وسكنى التجار.

القيساريات :

وفي ضوء استبداد حكم المماليك كانوا يحتكرون القيساريات بأسلوب جائر، ومن دلائل هذا الاستبداد ما قام به الأمير " جهاركسي الخليلي" بإنشاء قيسارية في تربة الزعفران التي كانت مقابر الفاطميين ، فنبش مقابرهم وألقى بعظامها على التلال الموجودة خارج القاهرة العتيقة . معتذراً بأن الفاطميين كانوا كفارا ، وهى دعوى تتنافي مع حرمة الموتى ورفاتهم ، وبني الخان باسمه " خان الخليلي " وأوقفه على الفقراء ، وجعل ريعه خبزا يوزع عليهم ثم استبدل بالخبز نقودا ، ومن هنا تبدو

المتناقضات بين أعمال السوء التي يرتكبها المماليك وأعمال الخير التي يكفرون بها عن سيئاتهم .

ولما جاء السلطان "الغوري" هدم الخان في سنة ٩١٧ هـ /١٥١١ م ، وأنشأ مكانة حواصل وحوانيت وربوعا ووكالات ، وقد هدمت هذه الحواصل وتلك الحوانيت وأعيد بناء الخان بعد ذلك ليشغله صناع التحف محاكاة للصناعات المملوكية ، خصوصا وكانت المحلات تعرض الزخارف الهندسية والنباتية ، وصناعة الأقمشة الحريرية المطرزة بالقصب ، وصناعة الخيام والأواني النحاسية المكفتة والتحف العاجية والأخفاف (ما يلبس في القدم) والسجاجيد ، وهذه الصناعات مازالت ممتدة في نفس خان الخليلي بحكم ميراث الصناع (شحاتة:ص ٢١٤)

وقد امتدت سلسلة الاستغلال والنفوذ إلى بداية حكم " محمد على" فكان خان الخليلي هو مصدر المشاكل ، وكان يبدو مطمعاً عند "سليمان السلحدار" وهو من كبار تجار المماليك في ذلك الوقت ، فقام بإنشاء القيساريات ومخازن البضائع التي كانت تمثل حاجة ضرورية للدولة لتخزين السلع والحاصلات والمنتجات الصناعية التي كانت حكراً لمحمد على ، فاستغل نفوذه وتسلط على بقايا المساجد والمدارس والتكايا المهملة في الصحراء ، وأنشأ هو الآخر بخان الخليلي قيساريات جعل بها مخازن الحواصل وطباقا خص بها نصارى الأروام والأرمن بإيجار أضعاف مثيلها ، وزاد في توسعته بهدم خان القهوة والمساكن المجاورة لتوسيع خان الخليلي وكان يفرض ما يريد من تعويض لأصحاب المساكن ، ويستولى على الأوقاف ويهدمها ليلا قبل أن يكتشف القاضي ذلك فيقضى عليه . (سمير : ص ١٠٣)

كان المماليك لايدعون فرصة إلا ويعرضون على الناس غرامة وضريبة جديدة ، فاشتد الضيق بالناس مما زاد في سوء الحالة ؛ وفي أغسطس سنة ١٨٠٣ نقص النيل فكان له تأثيره على إنتاج زراعة القمح ،

وانـزعج النـاس وأقبلـوا علـى شـرائه ، وظهـر الاسـتغلال في التجـار في رفـع أسـعاره ، ممـا زاد مـن المتاعـب عنـد السـواد الأعظـم مـن السكان في ظـروف اقتصادية متدهورة بجانب مطالبة جنـود الـوالي " عثمـان بـك البرديسـي " برواتبهم المتأخرة . وكانت خزينة الحكومة خالية لعدد من العوامل : أولا : سوء الإدارة ، ثانيا: تلف الأراضي الزراعيـة ، ثالثـا : تعاقـب الفـتن ومـا أدت إليه من انقباض الناس عن العمل .

وفي ضوء الفكر الاستبدادي للوالي "البرديسي" فرض ضريبة جديـدة لسداد مرتبات الجنود نتيجة نفاذ المبالغ التي وصلت الخزانـة الـتي لا يمكـن بها سداد حقوقهم ، مما أدى إلى احتجاجهم ، فزاد من فرض الضرائب على جميع الأهـالي دون اسـتثناء ، وعلـى جميـع العقـارات والبيـوت موزعـة بـين الملاك والمستأجرين .

كانـت هـذه الضـريبة منطويـة علـى الإرهـاق والظلـم البـيّن ، فبـدأ النـاس يتظلمون ويتذمرون وامتنعوا عن دفـع الضـرائب ، وخـرج النـاس في ٢٥ ذي القعـدة سـنة ١٢١٨هـ مـن بيـوتهم يضـجون ويصـيحون واحتشـدوا في الشـوارع حـاملين الرايـات والـدفوف والطبـول وأخـذوا يسـتمطرون اللعنـات على الحكام المماليك ، واخذوا يصيحون بشـعار " إشـي تاخـد مـن تفليسـي يـا برديسـي" واغلق التجـار دكـاكينهم ووكـالاتهم واتجهـت جمـوعهم إلى الأزهر لمقابلة المشايخ والاحتجاج لـديهم ، فقـام المشـايخ إلى الأمـراء المماليـك يطلبون إلغاءها ، وكان احتشاد الجماهير وبعضـهم نـذير الثـورة ، ويصـف الجبرتـي هذه الثورة أن أهم دوافعها هي الضرائب ممـا أثـار التجـار (الرافعـي: ص ٣٢٥) .

لقد كانـت أسـواق القـاهرة بمثابـة مؤسسـة اقتصـادية واجتماعيـة وسياسـية ضـمت بـين جوانبهـا مختلـف القطاعـات الإنتاجيـة الـتي لم تكـن مجرد عنـاصر لممارسة عمليات البيع والشـراء فحسـب ، بـل كانـت تمـارس مجـالا للعلاقـات بـين الأفـراد والجماعـات في الأمـاكن المتفرقـة مـن هـذه

الأسواق بحيث يمكن لهذه الأنماط البشرية ان تكون ما يمكن أن تسميه بالرأي العام لعامة التجار ، وإن كان هذا الدور الحيوي للأسواق قد أخذ في الانكماش تدريجيا في ظل عوامل التدهور والتصدع في البناء السياسي للدولة بفعل الهزات الاقتصادية التي أصابت مصر في النصف الثاني من العصر المملوكي مما أثر سلبا على كثافة العاملين بهذه الأسواق، وبالتالي على كثافة جموع المتوافدين " الزبائن" عليها من المصريين داخل القاهرة وخارجها بعد أن تعطل أكثر ما تشتمل عليه من الحوانيت ، وصارت هذه الأسواق مناطق مهجورة وغير مأمونة لكثير من عامة القاهرة . (علاء: ص ١٠٩) ومع كل هذه الظروف تحولت الأسواق إلى مجتمع فاعل في الراي والتوحد في انتفاضات للدفاع عن مشاكلهم ، وربما كانت ظروف التغير الاقتصادي والتمادي في الضرائب قد أدت إلى تحول هذه الانتفاضات بعد ذلك إلى ثورة قضت على الحاكم المستبد نفسه .

الفصل الرابع

البناء الطبقي في المدينة

يمكن بإيجاز تعريف البناء الطبقي بأنه تنظيم جماعات في فئات وطوائف لها ملامح محددة بالثروة والقوة والمكانة ، ولها أيدلوجيتها الممتدة من ثقافة المجتمع ونظمه ، هذه النظم تصنعها كل جماعة كأنساق بغرض أن تتساند تساندأ وظيفياً ، الأمر الذي يبين مدى الترابط ، والتماسك كما يبين أيضاً مدى التصارع بين أفراد هذه الطبقة أو الفئة ، هذا التنظيم يشمل فيما يشمل عناصر وأسس في وحدة الجماعة ، كما يشمل وسائل الاتصال بينهم في كثير من المواقف المشتركة ، كما يتضمن ظاهرة تقسيم الأدوار فيما بينهم لأنها تعني استمرار بقاء الجماعة ، وتوزيع المسئوليات بين الأفراد طبقاً لنشاطها الجمعي، وأوضح هذه الاعتبارات ما يبدو من حراك صاعد وهابط بين نفس الجماعات طبقاً للظروف السياسية ، والاقتصادية . (Popenoe:478)

إن قضية التركيب الطبقي في مجتمع المدينة العتيقة من الصعب أن نتناوله بمعزل عن ملامح الثروة والمكانة التي كانت عليها فئات المجتمع ، . ولا شك أن التركيب الطبقي وتباينه حقيقة تاريخية في بناء مجتمع المدينة .

لقد عرفت القاهرة منذ الخلافة الفاطمية حتى حكم العثمانيين التمييز بين مكانة الجنسيات الوافدة وأبناء المجتمع المصري ، وظلت نظرة التمييز الطبقي بين انصار الراعي والرعية ينعكس في مظاهر الحياة اليومية في العصر التركي ، كما كان في عهد المماليك ، وممثلا في عناصر الجيش والاحتلال العثماني والولاة الأتراك وأعضاء الديوان أثناء الحملة الفرنسية ، وقد استمر البكوات المماليك كأسلافهم من المماليك

الشـركس يترفعـون علـى المصـريين ويبتعـدون عـنهم ، فلـم يصـاهروا المصريين ، وقد شاركهم الأتراك العثمانيين في ذلك ، ولم يكنوا أقل ترفعا وتكبرا على المصريين من المماليك .(شحاتة : ص ٢٤٨)

ومن هنا نستطيع أن نفهم سبب تأكيد هذا التمييز الطبقي الذي مرت به عاصمة مصر عبر تاريخها ، والواقع أنه لم يكن على مستوى بناء المجتمع المصري ككل ، وإنما ما يمكن أن نلمسه ان كان من بطانة الحكام الذين شكلوا وكونوا لأنفسهم جماعات خاصة بهم ، انعزلوا من خلالها عن فئات العامة ، في إطار العصبية العرقية التي كانت تمنعهم الاختلاط بالأسر المصرية ، أو الزواج من المصريات أو مشاركة المصريين عاداتهم ، بل إن هذه العزلة لم تستمر طويلا إذ سعى هؤلاء المماليك بترخيص من السلاطين إلى التزوج من بنات الأثرياء من المتعممين وكبار التجار طمعا فيما لديهم من أموال تساعدهم على حياة النعيم والترف التي اعتادوا عليها على حساب المواطنين الأصليين ، إذ كانت المصاهرة مرتبطة بالمصالح الاقتصادية دون البناء الأسرى ، واستمرت بعض الفئات العليا في البناء الطبقي من المتعممين وأصحاب الثروة تتحرك في الاتجاه الأحادي لمصلحة الطبقة الحاكمة طمعا في الرواتب والخلع السنية والمكاسب المالية ، والإنعامات النقدية والعينية ، بحيث كان وضعهم في البناء الطبقي مذبذبا ، فلا هم من أرباب السلطة والتعدد السياسي في الدولة ، ولا هم في صفوف العامة يشاركونهم حياتهم في السراء والضراء ، إلا أنهم في بعض الأحيان يبدون تعاطفهم مع بني جلدتهم من العامة ، لأنهم كانوا يعلمون أن وجودهم في رحاب الطبقة الحاكمة مرهون

بمصالح هذه الطبقة ، خاصة أن النظرية الإقطاعية للمماليك تنص على أن أرض مصر وجميع موارد الدولة من الخراج والزكاة والجزية والمكوس من نصيب السلطان والأمراء والجنود دون سواهم من الشرائح الاجتماعية الأخرى. (سمير : ص ٥٤)

ولهذا كانت معظم هذه الموارد لتمييز جنود الحاكم ، لأنهم سند الحاكم وقوته الرادعة في مواجهة التحديات ، فلم يكن للمماليك أي انتماء للمجتمع المصري ، فقد كان وجودهم لا يقوم على امتداد عائلي للمصريين وإنما جاء وجودهم على سند قوة أمراء المماليك ، لقد كان لهم السيادة على الأرض بالإدارة والجيش ، وتعيش في معزل عن أهل القاهرة وتشعر أنها العنصر المتميز في المجتمع ، وفى نفس الوقت تزدرى ناس المجتمع.

لقد كانت الثروات التي ورثوها عن آبائهم والإقطاعيات التي يمنحها السلاطين لهم تعتبر من حياة الرفاهية ، كما أن الالتحاق بالطبقة الحاكمة والحياة على هوامشها أعطتهم سطوة في المجتمع ، أما بالنسبة لمن يطلق عليهم أولاد الناس وهؤلاء يملكون مكانة اجتماعية، أو أهل العمامة ، فهؤلاء هم الفئات التي لعبت دورا هاما في مساندة أصحاب السلطة الحاكمة، وكان حجم عمامة الرأس لهؤلاء تتمشى مع المكانة الاجتماعية والطبقية في المجتمع .

إلا أن ثمة تغير ، حدث بعد جيل المماليك الأوائل ، وظهور جيل ثاني من الذين ولدوا في مصر ولم يمسهم الرق ، وابتعدوا عن السياسة فاختاروا لأنفسهم حياة السلامة ، وقد ساهم بعضهم في النشاط الثقافي في فترة وجودهم في مصر ، وقد أطلق على هؤلاء طبقة أولاد العز . (شحاتة : ص ٢٤٨)

على أن ذلك لا يمنعنا من الإشارة إلى الخصائص الطبقية كما عاصرها "المقريزي" وقسمها إلى تسع طوائف ، وهم "أهل الدولة من

المماليك" ، وأهل اليسار من التجار، ومتوسطو الحال من الباعة ، وذو الحاجة والمسكنة ، كما يشمل الأعراب وأهل الذمة ، والأقليات الأجنبية السوقة ، وأهل الفلح ، والفقهاء ويشملون طلاب العلم وأرباب الصنائع والمهن ، ويمكن أن نتبين مدى تطابق هذا التقسيم الطبقي على المجتمع القاهري ، من خلال عرض " الجبرتي " لمواقف الطبقات والطوائف المختلفة . وفي هذا المعنى لابد من إخراج طائفة الإعراب والفلاحين وطبقة الحكام من المماليك والعثمانيين ، أما طبقة الأعراب فيعود إخراجها إلى أن مجالها المكاني خارج إطار القاهرة الجغرافي ، على الرغم من أن القاهرة لم تخل على عهد "الجبرتي" من فئة منهم يهددون سكانها وينهبون ويسلبون ، مثل عرب الجعيدية الذين أذلوا القاهريين فضجوا منهم بالشكوى ، واضطر الفرنسيون لقتل زعيمهم غداة استقرارهم بالعاصمة .

وأما أهل الفلح أو الفلاحين فهم أيضا خارج إطار المدينة الاجتماعي والجغرافي ، حتى أولئك الذين يتعاملون مع أهل العاصمة بصفة دائمة ، وأما الطائفة الثالثة وهى طبقة الحكام من المماليك والعثمانيين ، فلم يعد لهم وجود مادي أيام الحملة الفرنسية ، إن لم ينته وجودهم المعنوي ، فلقد آثر بعضهم البقاء في القاهرة بعد أن صالح الفرنسيين على بعض المال ، وإن أقصاهم الفرنسيون تدريجيا عن مراكز الحكم الهامة ، واستعانوا بالمصريين في كل مكان .(المقريزي : ج١ ، ص ٨٢)

هذا ولم يغفل "الجبرتي" التعرض للبناء الطبقي لكل فئة من هذه الفئات ، كذلك نجده حريصا على توزيع السكان حسب المكانة الاجتماعية ، وطبقا للثروة التي يمتلكها أفرادها ، والمراكز الاجتماعية التي يحتلها قادتهم ، كذلك تعرض للعلاقات بين الطبقات والطوائف الحرفية كل إزاء الآخر.

ويمكن أن نلخص البناء الهرمي لسكان القاهرة حسب طبيعة طوائفهم ، كما حدد ملامحها " الجبرتي " وهى طائفة العلماء ، والتجار

وأرباب الحرف والصناعة ، وأرباب الحرف الدنيئة والدهماء .

طائفة العلماء :

كان حكام مصر منذ الحكم الفاطمي إلى الحكم العثماني لديهم قناعة بتعزيز حكمهم بعلماء الدين معلمين ومتعلمين ، ونظرا لحاجة الحكام لتعزيز حكمهم بهؤلاء فقد أضفوا عليهم مكانة بين طبقات المجتمع بحكم ما لهم من قوة وسطوة في نفوس الناس ، ولعل اقوى دليل على إحساس الناس بمكانة العلماء أن صار الناس يقصدونهم لقضاء حوائجهم ، ويتوسلون بهم للشفاعة لهم عند أهل الدولة ، وهذا ما جعل العلماء في كثير من مشكلات المجتمع أطرافا فيها ضد نظام الحكم .

ولتأكيد تمييز هؤلاء كان يطلق عليهم فئة المعممين من المشايخ والفقهاء والعلماء ، ولقد وجدت هذه الجماعة مكانة خاصة أثناء الحملة الفرنسية ، وكانت تقبل وساطتهم حين التجأ إليهم المحتاجون في الأزمات ليتوسطوا بينهم وبين سلطة الاحتلال .

ولقد كان بين العلماء أعضاء الدواوين المختلفة " كالجبرتي وعمر مكرم " كما منح البعض منهم الرواتب نظير القيام بادوار محددة في السلك التنفيذي ، والإداري ، كما استأثروا بالوظائف الدينية كمنصب قاضي القضاة .

والواقع أن بعض هؤلاء العلماء تميزوا في كثير من المواقف بقيادة الأحداث وتقدم الجماهير في المظاهرات والثورات ، ومن هنا نستطيع أن نميز هؤلاء عن القيادة التنظيمية ، فهي قيادة كاريزمية تلتف حولها الجماهير للبحث عن إنقاذها ، ومن ثم فهي دائبة التغيير من حيث كونها تعكس وتتحكم في المواقف المختلفة داخل المجتمع .

طبقة التجار والحراك الاجتماعي :

بداية أود أن نفرق بين طبقة التجار وفئة كبار التجار الذين

يمثلون ارستقراطية الشعب ، ففئة كبار التجار وهم الذين ارتبطوا دائما بقصور الخلفاء والسلاطين والأمراء وكبار رجال الدولة ارتباطا مباشرا . .ما طبقة التجار فهم فئة صغار التجار والباعة الذين لهم اتصالا مباشرا بعامة الشعب . (الجبرتي : ج ٣ ، ص ٢٥) ومن هؤلاء من استطاع التدرج في حراك صاعد بأساليب التسلق السياسي .

الواقع أن الوضع الطبقي في المدينة العتيقة لم يكتسب مكانته من الأوضاع الوظيفية أو المالية التي وصل إليها بعض العامة من المعممين أو التجار ، فلا يمكن أن تفسر وجودهم في طبقة اجتماعية منفصلة عن سائر الفئات الاجتماعية الأخرى في البناء الطبقي لمجتمع المدينة ، فإن نسبة كبيرة من الذين تولوا هذه الوظائف أحرزوا نوعاً من الثراء كانوا في أصولهم الاجتماعية من أرباب الحرف والصنائع ، أي من الشرائح الدنيا في البناء الطبقي ، وهو ما يمكن أن نطلق عليه مجازاً بالحراك الاجتماعي الصاعد ، لبعض الذين كانوا في أدنى مكانة اجتماعية ثم تمكنوا بطرق مشروعة أو غير مشروعة من التسلق حتى وصلوا إلى قمة البناء السياسي ، وتبدو هذه الظاهرة واضحة في عصر المماليك الجراكسة لما كان يتسم به هذا العصر من مظاهر التدهور السياسي والاقتصادي الذي أثر سلباً في الأوضاع الطبقية للمماليك لمصلحة فئة قليلة من العامة ، ولكن السواد الأعظم كانت أحوالهم تزداد سوءاً بسبب الفقر والعوز وضيق ذات اليد ، ويذكر " المقريزي " و "ابن إياس " العديد من الأمثلة التي تؤكد ظاهرة الحراك الصاعد من العامة ، مثل ما حدث في سنة ٨٠٨هـ ، عندما تولى أحد الباعة وظيفة المحتسب ، وتولى آخر وظيفة ناظر الأوقاف ، وهو من السوقة وكان من أرباب العمل في صناعة الحلوىٰ ، وفى عام ٨٥٢ هـ تولى أحد الطباخين وكان — أمياً — وظيفة الوزارة مكافأة له على مما كان يمارسه من أبشع أنواع المصادرات على الأثرياء من التجار ، والاستيلاء على أموالهم ، تلبية لأطماع السلطان ، وتذكر نفس المصادر ، أن أحد الفلاحين

تـولى منصـب الـوزارة ، وكـان يبـذل كـل جهـده في ابتـزاز الفلاحـين والتنكيل بهم إرضاءً لهوى السلطان في جمع الأموال بشتى الوسائل .

ويبـدو أن مؤرخـا مثـل " ابـن تغربـردى " لم يكـن راضـياً عـن هـذا التحـول الاجتمـاعي لأربـاب الحـرف ، والصـنائع ، وغيرهـم مـن السـوقة في تقليدهم الوظائف العليا ، وارتدائهم الأزياء الفـاخرة ، ويضـرب مـثلاً بأحـد العامة الذي تولى منصب وكيل بيت المال بالبذل بعد أن كـان بـالأمس في الفقر والإفلاس حتى صارت ثروة السلطان تجمـع مـن الأوبـاش والرذائـل . (علاء:ص٤٤) .

أرباب الحرف والصناعات :

ظلـت طائفـة الحـرفيين كطائفـة كـبيرة مـن الصـناع وأصـحاب الحـرف، تحتـل مكانـة في البنـاء الاجتمـاعي ، والاقتصـادي ، كمـا ظلـت تخضع لنظام الطوائف الذي يضـم أفـراد كـل حرفـة ، وظـل زعمـاء هـذه الطوائف يحتلون مكانـة عنـد السـلاطين والحكـام حسـب احتيـاجهم إلـيهم وبقدرة مهاراتهم الحرفية ، وكان من أبرز هذه الطوائـف البنـائيين الـذين برعوا في فنون العمارة الدينية ، ولقد حظيت هذه الطائفة برعاية الأمـراء ، وكان لها بعداً سياسياً ، وهو ما أدركه " ابن خلـدون " و " المقريـزي " و " السـبكى " في كتابـاتهم ، الـذين رأوا في الصـحوة العمرانيـة في ظـل الحكـم المملـوكي نوعـاً مـن المـدارة السياسـية للفسـاد ، والنكبـات مـن السـلاطين والأمراء ، خاصة وأن هـذه العمـارة كـان يصـرف عليهـا مـن أمـوال الرعايـا ومظـالم العبـاد ليقـال هـذا جـامع فـلان ، ومـن ثـم كـانوا يحرصـون علـى توظيف المبالغ الطائلة من أجل الإنشاءات الدينيـة ، وكـان لأربـاب الحـرف والصنائع النصيب الأعم من الأمور النقدية ، حتـى في الوقـت الـذي لم ينـل فيـه نظـراؤهم في أنمـاط العمـارة الأخـرى غـير الدينيـة شـيئا يـذكر مـن الأجور، بل وصل الأمر إلى أن كثيراً ممن كـانوا يلتزمـون بالعمـل أحيانـاً

طول النهار كانوا يعملون بدون أجر على سبيل السخرة . (المقريزي ج٢ ، ص ٣٢٨)

لقد تعددت الحرف والصناعات بحكم البناء الطائفي لكل حرفة ، إلا أن مصالحهم كانت غالباً ما تتقاطع تقاطعاً عرضياً مع طبقات اخرى داخل مجتمع القاهرة ، وقد يكون من هؤلاء مالكاً أو مستاجرا ، وصاحب حرفة أو صنعة ، ومن الطبيعي أن يؤثر هذا الانتماء المتعدد على طبيعة الوضع الطبقي ، وتشير وقائع الحركات الاجتماعية والسياسية التي أسهم فيها أصحاب الحرف إلى حقيقة أساسية تتعلق بهذه الفئات ، أنها أكثر الفئات ميلا للارتباط بالمشاركة في الانتفاضات والثورات التي شهدتها القاهرة ، وتشير المصادر التاريخية والأدبية إلى الأعمال التي يشغلها عدد كبير من عامة القاهرة مثل الإسكافية والمشاعلية والحمالين والتراسين والكساحين ، وغيرها من الحرف التي يراها الناس في معرض القرف والاشمئزاز، برغم أن هذه الحرف وغيرها تؤدى دورا مهما للناس في أعمال النظافة ، وتطهير الأماكن من الأوساخ والقاذورات التي هم مسئولون عنها ، والتي قد تسبب لهم العديد من الأمراض والأضرار الصحية والنفسية ، بدليل أن المحتسب في القاهرة كان يراقب عمل " الكاسح " بنفس المستوى الذي يراقب به أصحاب الحرف الأخرى ، لعلمه بالآثار السلبية المترتبة على إهمال مثل الأعمال الأساسية والتي تنعكس بدورها على القوى الاجتماعية والإنتاجية.(علاء: ص ١١٣)

العامة والدهماء :

لقد عرفت القاهرة في تاريخها فئات كثيرة من الباعة والسوقة وأشباه المعدمين أطلق عليهم اسم العامة ، ولاشك أن هناك من هؤلاء الباعة من كانوا قد انحرفوا وأصبحوا يعملون على الفساد واضطراب المجتمع ، والمصطلح الذي وصفهم به الجبرتي هو : الحرافيش والحشرات

والزعر ، وهو يعني بهم أهل الفساد من الدهماء ، ولا يشير بهذا اللفظ إلى الفقراء والمعدمين وجماعات المتسولين والعميان :

الحرافيش :

الواقع أن الدهماء من فئات الحرافيش والحشرات والذعر كما يصورهم "الجبرتي" أدنى الجماعات في البناء الطبقي إذ يغلب على أعمالهم السلب والنهب في وضح النهار ، وكان هؤلاء من القوة حتى أصبح لهم شيخا يخشاه السلاطين ، وهو شيخ الحرافيش ، ولعل الدليل على ذلك أن السلطان "قنصوه الغوري" حين خرج لمواجهة الزحف العثماني في الشام سافر معه شيخ الحرافيش وجنده وصنجه وطبله ، وكان هو قدام طبل السلطان لما دخل دمشق ، (وكلمة الحرافيش لها مدلول لغوي بمعنى آخر ، وهو حرفشت الرجال أي تصارع بعضهم مع بعض ، وبمعنى آخر تفشي الديك أي تهيأ للقتال) وتشير المصادر التاريخية إلى أنهم يعنون "بالحرافيش" دون أن يكونوا في البناء التنظيمي للجيش ، ولقد لعب هؤلاء الحرافيش دورا بارزا في اختطاف العدو ، ويؤكد الجبرتي أن أعدادهم كانت هائلة في عصره ، وأن ذلك لم يحل دون هجومهم إبان المجاعات والأزمات على حواصل الغلال ووكالات القمح التي يمتلكها المماليك والعثمانيين معا . (النجار : ص ١٨٦) ويعنى ذلك، أنهم كانوا يمارسون اللصوصية ، وكانت هناك طوائف أخرى من اللصوص يطلق عليهم طائفة الجعيدية ، وكان لها دور وطني بطولي في ثورات القاهرة ، وهى طائفة المتلصصة ، يصفها "الجبرتي" إبان دخول الحملة الفرنسية مصر، وهروب حكام مصر وأمرائها من المماليك والعثمانيين أمام الانتصارات الساحقة للفرنساوية .

الجعيدية :

معناها لغويا: لئيم وضيع النسب ، وأوباش الناس وفى انتقامهم من

المماليك اتجهوا إلى بيوت الأمراء ونهبوا بيت (إبراهيم بك ، ومراد بك)حاكما مصر آنذاك وأحرقوها ، ونهبوا أيضا عدة من بيوت الأمراء الهاربين ، وأخذوا ما فيها من فرش ونحاس وأمتعة وغير ذلك ، وباعوه بأبخس الأثمان ، ثم نهبوا غالب الدكاكين والأسواق التي كانت للمماليك".

ونستطيع أن نتصور من وصف "المقريزي و الجبرتي" أن نحدد الأحياء التي تسكنها الفئات الدنيا من الجعيدية وهى الحسينية ، باب الشعرية ، مصر القديمة، بولاق ، الرميلة ، ولم يكن هؤلاء الأوباش إلا أصحاب مواقف وطنية وهم من سماهم الجبرتي بحشرات الحسينية ، وزعر الحارات البرانية ، وكان يبدو موقفهم من علماء مصر ومشايخها بشأن بعض أمور جدت في ديوان القضاء سنة ١٢١٣ هـ فقد فرض الفرنسيون تولي بعض قضاة النصارى في ديوان القضاء ، فعلى حين وافقهم على ذلك بعض المتعممين والذين لم ينظروا في عواقب الأمور ! رفض العامة ذلك .. يقول " الجبرتي " بعد ذلك : فتجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم ، وأصبحوا يوم الأحد متحزبين وعلى الجهاد عازمين ، وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب والكفاح ، وحضر السيد بدر وبصحبته حشرات الحسينية وذعر حارات البرانية ولهم صياح عظيم ، وهول جسيم ، ويقومون بصياح في الكلام : نصر الله دين الإسلام ، إلى آخر الحادثة التي رواها الجبرتي .. ويعنينا وصفه للعامة الذين رفضوا الأوامر الفرنسية رفضا قطعيا بأنهم : حشرات الحسينية (فتواتها) وزعر الحارات البرانية ، أي فتوات الأطراف يقصد (بولاق ومصر القديمة) ، وتكون النتيجة إعلان الحرب بين العامة والفرنساوية.

وعلى الرغم من وصف "الجبرتي" فهناك شواهد تاريخية تؤكد دور هؤلاء في ثورات الشعب ومواقفهم البطولية في مواجهة قوى الفرنسيين في

شوارع وأحياء القاهرة ، وكان دائما ما تنسب الانتصارات التي كانوا يحققونها إلى غيرهم ، وربما كان ذلك سببا في تجاهل أدوارهم الوطنية ، والتركيز على خصائصهم الإجرامية .

اما أوباش الناس الذين التفوا حول الجعيدية فلم يكونوا إلا الفقراء الذين يحصلون أقواتهم يوماً بيوم ، فإذا صارت فتنة عظم الهول عليهم وضاقت الأحوال لتعطل الأسباب ، ومعظمهم من ذوى الحرف المحتقرة والمهن الوضيعة على حد تعبير " الجبرتي " ، وعددها اثنتان وسبعون حرفة ، وكان لهؤلاء الجعيدية كبير يعرف بشيخ الجعيدية ، وقد تمكن الفرنسيون من القبض عليه حيث انقضوا عليه بالرصاص ببركة الأزبكية.

الزعار والعيارين :

لعل ما يلفت النظر أن مصطلح الزعار غلب على لفظ أو مصطلح العيارين ، فاختفي هذا المصطلح الآخر تماما عند (ابن إياس) ولكن هذا لا يعني أن البيئة المصرية لم تعرف هذا المصطلح ، فقد ذكرهم "الجبرتي" ضمن الطوائف الدنيا الخارجة على القانون التي تحترف التلصص .. ففي سنة ١١٨٢ هجرية ورد هذا النص (وفيها تم إبطال النشالين والحرامية والعيارين .... ونهاية ما ذكره الجبرتي من حوادث سنة ١٢٣١ هجرية عن هؤلاء (العيارين من السراق) على حد تعبيره : قد تعدوا على قهوة الباشا (محمد علي) بشبرا وسرقوا جميع ما بالنصبة ، فثارت ثائرة الباشا ، وهدد بعض أرباب الدولة ، فقبضوا على جماعة منهم ، فخوزق الباشا منهم عددا كبيرا ، ثم شنق أيضا أكثر من خمسين عيارا في نواح متفرقة بالأقاليم مثل القليوبية والغربية والمنوفية لكي يكونوا عبرة لغيرهم من العيارين الذين تسول لهم نفوسهم سرقة ممتلكات الباشا .

الواقع أن من يقرأ عن هذه الفئات المتشابهة عند وضعها في البناء

الطبقي للعامة من خلال المصادر التاريخية يستشعر نوعاً من الغموض والضبابية في كتابات المؤرخين كأنهم يرددون تغييب الوعي عن شجاعتهم وكرمهم .

والواقع إذا ما تمت مقارنة مفاسد الحرافيش والشطار بالمستوى الأخلاقي للمماليك الجراكسة في ذلك السوق نجد وصف لهؤلاء المماليك بانهم ازنى من قرد واجبن من فارة وافسد من ذئب ..

لقد كان الشائع أن الزعر والحرافيش والشطار كانوا يسرقون الأثرياء ، أما سلاطين المماليك والأمراء والأجناد فكانوا يسرقون الشعب بأسره دون استحياء.

الفتوة :

أما الفتوة التي عرفتها مصر ، منذ إحياء الخلافة العباسية أيام المماليك قد انتشرت بين " عشائر " أو طوائف أرباب الحرف وأهل الصنايع ، إذ كان لابد لكل طائفة من طريقة صوفية لها طقوسها الخاصة تضم أبناءها وتميزهم ، وتلزمهم بسلوك اجتماعي وديني ومهني معين ، وتحقق لهم نوعا من الحماية والتكتل والتماسك (النجار: ص ٢٢٤)

ولعبت هذه التنظيمات الحرفية أو الطوائف أو الأصناف طبقا لتعبيرات تلك العصور دورا ثوريا متميزا في التاريخ المصري بانضمامهم لثورات العوام وانتفاضاتهم ضد المماليك والعثمانيين والفرنسيين .

الطبقات الدنيا وموقعها في أحياء المدينة :

تجدر الإشارة إلى أن هذه الطوائف الشعبية كانت تقطن الأحياء الدنيا ، التي كانت تقع على تخوم القاهرة وكانت هذه الأحياء التي شكلت ضواحي حقيقية أيام "المقريزي" أحياء شعبية حرفية ، تضم الطوائف الحرفية الكبرى لصناع المواد الغذائية التي نشأت فيها ، ومن ثم كانت مناطق شديدة الحساسية بالنسبة للتقلبات والضوائق الاقتصادية الكثيرة في أيام المماليك والعثمانيين ، وتشكل من أبنائها فرقا لحمايتها

تعرف باسم عسكر الأحياء ، ثم أطلق على بقاياهم فيما بعد " الفتوات " ولم يكن عسكر الأحياء إلا هؤلاء فرق الذعر والعاطلين وصغار الحرفيين وأهل الحارات ، ومنظمة عصب الأحياء الذين ظل الحكام ينظرون إليهم في خوف وشك ، حيث تصعب السيطرة عليهم دائما. (النجار : ص ٢١١)

<u>**المرأة في البناء الطبقي :**</u>

بالرغم مما سبق فإن المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي شهدتها المدينة العتيقة في بنائها الطبقي لا يمكن أن تعزل المرأة عن البناء الاجتماعي للمدينة وما تشكله من وضع اجتماعي في المدينة .

ولعل أهم ما يميز هذا المستوى المظاهر الثقافية بين نساء الطبقات العليا والعامة ، ويقدم لنا " إدوارد لين " وصفا لهذه المظاهر في دراسته لملابس النساء بين الطبقتين ، وبشكل عام يصف المظاهر المشتركة في غطاء الوجه بالبراقع لإخفاء الوجه ما عدا العينين مما يعني أن التحجب كان هو السائد في هذه الفترة ، إلا أنه يشير في نفس الوقت إلى النساء المصريات من طبقة العامة اللائي كن يتخففن من قيود الحجاب بحيث يصبح من السهل وصف الوجه والقوام . (بكر : ص ١٠١)

والملاحظ أن فئات العامة من النساء كن يتفنن في لبس الملاءة السوداء لإبراز مفاتن أجسادهن ، كما كن يلبسن الخلخال فوق الكعبين للفت النظر إلى قوام الساق ، وكان ذلك شائعا ومازال إلى حد قريب في الأحياء الشعبية .

أما بالنسبة لتجاوز بعض النساء من الخروج عن الحشمة فقد انتقدها الجبرتي لما شاهده من ذلك في شوارع القاهرة بين الفئات العليا والعامة من النساء ، وكانت أهم المظاهر غير المألوفة تلك التي ظهرت في فترة الحملة الفرنسية على مصر ، وما كان يلفت النظر من مصاحبة الفرنسيات لأزواجهن حاسرات الوجوه لابسات الفساتين والمناديل الحرير

الملونة ، ويسدلن على أكتافهن الطرح الكشميري والمزركشات المصبوغة، ويركبن الخيول والحمير ويسقنها سوقا عنيفا مع مزيد من الضحك والقهقهة ، ومداعبة المكارية وحرافيش العامة، ومن ثم مالت إليهن نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش ، " كما كان بعضهن يرتدن المقاهي في حي الحسين كما حدث لزوجة حاكم الحي ، وكانت من أولاد البلد المخلوعين (أي أهل الخلاعة) ، لقد خرجت النساء عن أصول الحشمة وخلع برقع الحياء.

كما اختلط الأمر بالنسبة لزواج الفرنسيين من مصريات ، فكان يبدو من بعض الذين تقدموا لخطبة بنات الأعيان والزواج منهن بعد النطق بالشهادتين ، ولقد رحبت بعض العائلات بهذه الزيجات طمعا في السلطان أو نيل رضا الحاكمين، ولم يكن يطلب من الفرنسيين سوى النطق بالشهادتين إذ ليست لديهم في رأى "الجبرتي" عقيدة يخشون فسادها، فكانت هذه الظاهرة سببا في انتشار الخلاعة، ولقد كانت فاطمة الرشيدية الزوجة الأولى التي تزوجت من "جاك مينو" نموذجا واحداً من نماذج عديدة ، وتزوج بعدها "زبيدة الرشيدية" كما كانت "زينب البكري" نموذجا آخر في علاقتها ببعض الضباط الفرنسيين بشكل متحرر . فاعلن ابوها براءته منها وطلب بكسر رقبتها فكسروها ، اي أعدموها.(الجبرتي :ص ١٩)

ولقد كانت مظاهر تحرير المرأة كما تبدو في الحياة العامة سافرة، والأكثر من ذلك أن بعض النساء المسلمات اشتغلن في أحكام الأخطاط ، كما كن يسرن بزى الأخطاط للاشتراك في النظر في أمور الرعية والأحكام العادية والأمر والنهي ، ومن مظاهر الاستعراض الطبقي لبعض المصريات أن تسير وحدها أو تصطحبها بعض صديقاتها وأترابها المرتديات بمثل ردائها ، وأمامها القواسة والخدم بأيديهم العصي يبعدون الناس عن طريقهن مثلهن مثل الحاكم ، وهو مؤشر للمستوى الطبقي التي كانت

تحظى به نساء الأكابر في العصر المملوكي .

كما يبدو بوضوح أن التغير الاجتماعي في ثقافة فئة من النساء كان ينطوي على مغزى واضح لفئات تعيش ضغوطا اجتماعية من قبط ، وجواري من البيض والسود تعاملت مع الفرنسيين ، ومعنى هذا أن هذه الفئات وجدت منطلقا في هذا الوضع الطارئ ، وينطبق الأمر على هذه الفئات المتواضعة ، والتي يسميها "الجبرتي" بأصحاب المهن الخسيسة والحرافيش والسفلة ، فقد قام هؤلاء بما تشتهيه نفوسهم وما يخطر في أذهانهم . (زياد : ص ٢٦٠)

وعلى الرغم من ذلك فكانت هناك حركات انتفاضة نسائية انطلقت من الحارات والأزقة والدروب احتجاجاً على هدم قبور الأزبكية ، حين شرع بعض القواسة في ١٨ ربيع الثاني سنة ١٢١٣ هجرية من هدم التراكيب المبنية على مقابر الأزبكية ، ويقول فيها الجبرتي: أن النساء القاطنات بحارات المدابغ وباب اللوق وكوم الشيخ سلامة والفوالة والمناصرة وقنطرة الأمير حسن ، وقلعة الكلاب ، خرجن في جمع غفير حتى صاروا كالجراد المنتشر ، ولهم صياح وضجيج ، واجتمعوا بالأزبكية تحت ساري عسكر فابطل عملية الهدم .

(الجبرتي : ص ٣٦٦)

كما كانت هناك مظاهرة من النساء الملتزمات التي وقعت أحداثها في ربيع الأول عام ١٢٥٩ م ، وكان قد صدر فرمانا من محمد على يتضمن ضبط جمع الالتزام تحت رعايته ، وهو ما أثار الملتزمات ، فقمن بمظاهرة وتوجهن إلى الأزهر وصرخوا في وجه الفقهاء ، وأبطلوا الدروس وبددوا محافظهم وأرزاقهم ، ونددن بأمر الفرمان الذي يعطل معاش الناس وأرزاقهم ، ومنهم أرامل وعواجز يعشن من إيراده ، واجتمع معهم عدد من العامة واستمروا في هرج إلى أن جاءهم من يقول أنه كلام كذب ، وانفض الحشد وذهبت النساء وهن يعلن عودتهن حتى يتم الإفراج عن

حصصهن من أموال الالتزام ، وقد أساء محمد على هذه المظاهرة . (الجبرتي:ج ٤ ص ٢٨٨)

الواقع أن " محمد على" بدأ في القضاء التدريجي على فئة الملتزمين والملتزمات ، فبدأ بفرض ضرائب على أراضي الوصايا وأراضي الوقف والمسموح أي الأراضي التي كانت تمنح لمشايخ القرى معفاة من الضرائب ، وما أن جاء عام ١٨١٤م حتى صادر محمد على كل أراضي الالتزام ، وأعاد تنظيم جمع الضرائب عن طريق موظفين إداريين ليضمن أكبر عائد نقدي إلى الخزانة .

بشكل عام كان " الجبرتي " محدداً بالنسبة للنساء برفضه سلوكهن الذي يتنافى بطبيعة الحال إلى ثقافة المجتمع الإسلامي الذي يحافظ على صورة المرأة ، وهو ما يتطلب من الحاكم الالتزام به ، خاصة وأن حكام هذا العصر كانوا يزعمون انهم يطبقون شريعة الإسلام في الدولة .

الوضع الطبقي للأحياء السكنية :

لا نستطيع أن نتحدث عن الوضع الطبقي فى لمدينة القاهرة العتيقة دون الإشارة إلى التباين بين الأحياء السكنية ، وكانت مؤشرات التباين تبدو بين طبقتين :

- **الطبقة الأولى** : كبار الشيوخ والأغنياء والتجار والميسورين الذين كانوا يفضلون بركة الأزبكية التي فيها سكن الجبرتي حسب قوله ، كما كان المركز المفضل للأقليات الأجنبية والسفراء ، وكان أبناء الطبقة الحاكمة من البكوات والضباط يتقلبون في حراك تدريجي من مساكنهم حول القلعة إلى بركة الرطلى ثم نواحي بركة الأزبكية .

لقد آلت الكثير من قصور الأعيان والمماليك إلى غيرهم أثناء الحملة الفرنسية ، وعلى سبيل المثال نزل نابليون في قصر" محمد بك الألفي" ثم

تحول بعد ذلك إلى الفندق المعروف "بشيبارد" كما احتل علماء الحملة الفرنسية ومصوريها دار السنارى بالسيدة زينب ، وهو من كبار الأعيان ، وفيه أجريت دراسات وبحوث نشرت في كتاب وصف مصر ، ومما يذكر أن المجمع العلمي الذي أنشاه الفرنسيون عقد أول جلساته في قصر حسن الكاشف شركس ، وهو من أجمل القصور في القاهرة ، ومكانه اليوم هو المدرسة الثانوية الناصرية ، وفى وصف هذا القصر يذكر "جوفر واسان هلينز" أحد أعضاء المجمع أن فيه من وسائل الراحة ما لا يقل عن قصر اللوفر ، وكان هذا القصر أول مقر لنواة المتحف المصري إذ أودعت به بعض المومياوات وحجر رشيد الذي اكتشفه "وبشار" وقد زار "عبد الرحمن الجبرتي" هذه الدور ووصف ما فيها وصفا دقيقا ، وقال عن مكتبة المجمع التي كانت في هذا القصر بأن فيها جملة كبيرة من كتبهم وعليها خزان ، وقد استفاد منها "عبد الرحمن الجبرتي" في الاطلاع، ومن القصور التي ذكرهاً تلك التي سكن فيها "ديبواى" قصر إبراهيم بك في بركة الفيل ، وكان له قصرا آخر وهو القصر العيني ، كما سكن عدد من الجنرالات الفرنسيين بيت الإمام رضوان ، أما دار عثمان بك الأشقر فقد حوله الفرنسيون إلى مطبعة عربية فرنسية ، وكان القصر بجوار بيت "الألفي" الذي سكنه بونابرت . (الجبرتي:ص٤٨٣).

ومما يؤسف له كما يقول الجبرتى أن هذه القصور تلاشت معالمها لولا ما سجله الفرنسيون ورجال الآثار في لوحات وصف مصر الذي نشر فيما بين عامين ١٨٠٩م :١٨٢م، وكتاب "دى كوست" الذي ظهر فيما بين ١٨٢٧,١٨٣٩ ، وكتاب "بريس دافن" عام ١٨٧٨، ولولا وصف وكتابات هؤلاء ما كنا اهتدينا إلى تراث هذه القصور. (الجبرتي :ص ٤٨٣).

المهم أنه حينما احتل الفرنسيون القاهرة اختاروا أفضل الأحياء لقيادتهم وسكنى رؤساء وحداتهم العسكرية وأصبح تركيزهم السكنى في الأزبكية ، وهو ما استقطب الأجانب لسكناها ، كما كانت بيوت المماليك

والأثرياء مطمعا للعثمانيين بعد أن تركها الفرنسيون وهجرها الأمـراء ، وأصبح الغزو والتتابع يصب في حي الأزبكية مما أعطاها كثافة سكانية دون الأحياء الأخرى ،

الطبقة الثانية : فكانت تبدو في سكان الأحياء الشعبية مثل بولاق والحسينية والقلعة وباب الشعرية ومصر القديمة ، فكان من نتيجة هدم بيوتها من هجمات الحملة الفرنسية أن تشتت السكان على أحياء مختلفة من المدينة ، وإذا ما نظرنا إلى مساكن كبار التجار وقصورهم نجدهم وقد هجروها مثل أمراء المماليك ، ولكن كانت عوامل هذه الهجرة هي نتيجة فرض الضرائب الباهظة التي أعجزتهم عن أرزاقهم ، بالإضافة إلى مصادرة أسواقهم ، وبدأت أنشطتهم الاقتصادية في حراك هابط إلى أن تركوا بيوتهم واقتربوا من سكنى الطبقات الدنيا ، كما يشير في نفس الوقت إلى العلاقة الطبوغرافية في المدينة وسكنى طبقات العامة ، وهو يشير إلى تحول مساحات جديدة من شرق النيل إلى عمران سكنى لمختلف شرائح العامة من التجار الذين ساء حالهم وصغار التجار والحرفيين والصناع والباعة والسوقة وغيرهم من عامة القاهرة الذين استقروا في تلك الأراضي ، وأنشئوا بيوتاً رخيصة التكاليف تتمشى مع إيجارات متواضعة لسكانها محدودي الدخل الذين فرضت عليهم ظروفهم سكنى الأطراف (المقريزي : ج٢ ص ١١٣) ، وفى ضوء الحراك الهابط اختلت طبقات المجتمع ومركب الخريطة السكانية في المدينة .

الواقع أن مركب الخريطة السكانية ، يبدو من الفصل السكنى ، بمعنى أن لكل طبقة منطقة سكنية ، ولكل منطقة طبقة ، وأهم من ذلك أن الفصل السكنى سلمى ، بمعنى أن سكنى الطبقات تتدرج من منطقة إلى أخرى كما تتدرج في السلم الاجتماعي .

وبتفسير أوضح فإن منطقتي المكانات العليا والدنيا يندر أن تتجاور أو تتلاصق بحكم الفروق الطبقية .

أود أن أشير هنا إلى أن عرضي للخريطة السكانية للعاصمة العتيقة الهدف منه تقديم عرض تاريخي للفروق الاجتماعية لسكانها والعلاقات التي تربط بينهم ، ودور كل من هذه الفئات في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وهو الأمر الذي يعطينا صورة عن ديناميات مجتمع القاهرة في تاريخ الزمان والمكان .

الفروق الطبقية وخصوصية الأسرة :

لقد كشفت الشواهد السابقة للفروق الطبقية ما يبدو من ظواهرها في الحياة العامة ، ولكن ما يمارس فيها من الحياة الخاصة العائلية فمن الأمور التي يصعب دراستها أو مشاهدتها، ولكن هناك إشارات عنها استطاع أن يصل إليها الباحثون من خلال الإخباريات ، من النساء اللاتي استطعن وصف الحياة العائلية في قصور المماليك مقارنة ببيوت فقراء المدينة ، ويبدو من الوصف الشائع للقصور أنها مقسمة إلى حرملك وسلاملك ، فالحرملك هو المكان المخصص للحريم والأزواج والأولاد ، أما السلاملك فهو مخصص للزوج وضيوفه والسكرتارية الخاصة بربة البيت ، والواقع أن العلاقة بين السلاملك والحرملك لها ضوابط منظمة ، فالأزواج وحدهم هم الذين يستطيعون التردد عليها بحرية ، ولا يمكن لأبوابها أن تفتح مطلقا لأحد باستثناء الطبيب أو الكاتب ذلك النوع من السكرتارية الذين تستخدمهم عادة ربات بيوت الطبقة العليا في حضور الإماء والأغوات.

ومن أدبيات دخول الحرملك الاستئذان المسبق للزوج عن طريق أحد الطواشية أو العبيد ، وفى نفس الوقت لا يظهر مطلقا في الحرملك إذا كان هناك سيدات في ضيافة ربة البيت ، وتراعى الزوجة أن تبعد الإماء عن طريق أزواجهن خشية التحرش الجنسي بهن ، وفى بعض المواقف إذا لمح الزوج واحدة منهن ونالت إعجابه أبدى الرغبة بالانفراد بها في هذه الحالة

تنسحب ربة البيت من المكان ، وفى بعض حالات أخرى تكون ربة البيت المبادرة في تقديم الإماء الجميلات كهدايا لأزواجهن ويضفين عليهن المجوهرات والتزين بأفخم الملابس ، وعلى سبيل المثال كانت زوجة مراد بك تقدم له المحظيات ، وكان هؤلاء يحتفظن دائما بالاحترام لسيدتهن ومراعاة مصالحها .

وكان من تقاليد المماليك أن تتزوج الأرملة من مماليك زوجها ، وفى هذه الحالة يظل هذا المملوك يحتفظ بأكبر قدر من الوفاء لها ، وفى الحالات التي يتزوج فيها مملوك بأرملة سيده ، فإذا كانت هذه الزوجة من النوع الغيور فكان يخفى عنها مغامراته النسائية خارج نطاق الحرملك ، ومن الطرائف أن أحد المماليك الذي تزوج بأرملة سيده ضبطته هذه الزوجة مع واحدة من إمائها ، فقامت بضربة بقسوة ، وهى تصب عليه شتائمها ، ومع ذلك لم يستطيع أن يجمح شهواته ، فكان الانتقام بإغراقها في بئر الماء أو وضع السم لمن تشك في علاقتها بزوجها .

في وصف "شابزول" عن مباهج وترف ومسرات الحريم ما كانت عليه زوجات المماليك ، فيصور حياتهن الروتينية التي تقضى الواحدة منهن يومها راقدة فوق فراشها متكئة على وسائد رخوة تحيط بها نساء من الإماء شديدات الانتباه لتلبية إشارة من إصبعها ، ويمكن لبعضهن شغل فراغهن بغزل الحرير أو بتطريز مناديل غطاء الرأس أو الشيلان التي تصنع منها أحزمة الأزواج ، ونتيجة لحياة الرخاوة تكتسب نساء هذه الطبقة المترفة البدانة والتي تجد استحسانا عند الرجال الأتراك ، وفى وصفة لتلك النساء يصف شابرول جمال هؤلاء النساء بالبياض الناصع والعيون الجميلة وتناسق ملامح الوجه ، ويصف بجانب هذا التناسق جمود الوجه الخالي من التعبير ، وإن كن يحاولن تعويضه بمساحيق التجميل و يضعن الزينة لتحسين بشرتهن وإخفاء أثار تجاعيد الطبيعة ، أما عقولهن فيصفها بأنها خالية من اي معرفة، اما بالنسبة لنساء الطبقة

الدنيا فهن على عكس الطبقة المترفة فهن مشغولات بشئون البيت ، والعمل خارجة لمساعدة الزوج ، أو جلب المياه التي يحملنها على رؤوسهن ، وفى كل الأحوال فأجسادهن قوية ، وحركاتهن رشيقة بالمقارنة للحركات الثقيلة للنساء المرفهات ، وهن لسن أقل منهن في فنون الزينة واستخدام الحلي المتواضعة التي تبدى المرأة بها جمال أنوثتها ، ويضيف" شابرول" نظام النوم فلطبقة الأغنياء حجرات مستقلة ، وعادة لا ينام الرجال بجوار زوجاتهم ، أما طبقة الفقراء فتجمعهم مع زوجاته حجرة واحدة ، ويختارون الركنين المتقابلين ويوضع الفراش وسط حجرة كبيرة ، وهو بالنسبة للطبقات الميسورة سجادة مبسوطة على ألواح خشبية ويحيط بالسجادة أربع مخدات فخمة اثنان منها على اليمين واثنان على اليسار ليحضر بذلك الفراغ الذي يتبقى أن يشغله النور ، ويوضع أعلى ذلك غطاء (ناموسية) من الحرير الموسيلن بعضها بطراز بالذهب والفضة ، وهو أحد مظاهر الثراء الطبقي بالمقارنة بالفقراء الذين يفترشون الحصر المصنوع من سعف النخيل ، وينامون عليه بكامل ملابسهم ، ومن الطرائف بالنسبة لاستيقاظ الفئات المرفهة أن تقوم واحدة من الإماء بدغدغة باطن قدم النائم بشئ من الرفق لإيقاظه وهى حركات تكشف عن حياة التدليل والترفه لهؤلاء .(شابرول: ص ١١٢-١١٣).

ومن الأمور التي تحظى بها بيوت الطبقة المرفهة الحمامات التي تزود بالمياه الساخنة والبخار ، وتتبادل نساء هذه الطبقة الزيارات ، وقبول الدعوة لها ، والذي يتم تزويده بأنواع العطور وماء الورد ، كما تعد محالا لاستعراض أنواع الملابس والمجوهرات ، و قضاء الوقت في تناول القهوة والمشروبات وأنواع الفطائر ، ثم قضاء باقي الوقت في التسلية والترفيه ، أما بالنسبة لأفنية البيوت فهي كثيرا ما توظف في الولائم والاحتفالات الأسرية ، وفى بعض هذه الاحتفالات تدعى إليها العوالم للرقص والغناء ، ويكون موقع النساء من مشاهدتها في الحرملك وراء المشربيات التي تطل

على الفناء ليشاهدن عروضهن ، وفى بعض الأحيان تؤجر الغوازي لإحياء الحفلات الخاصة وهن يرقصن سافرات أمام الرجال ويقدم فيها النقوط التي يجمعها الخلبوص وهو مهرج الفرقة ، وكثيرا ما يسرى الضيوف جماعة من الآلاتية يعزفون في إحدى الغرف الكبيرة في السلاملك ويتجمع فيها الضيوف وتكون هذه الغرفة مجهزة بالأرائك والوسائد ، ويوضع عادة مصباح في الوسط ، وفى كل الأحوال يقبل العازفون العطايا من الضيوف .

ويصور (وليم لين: ص١٧٣:١٧٤)مباهج السهرات في رمضان في بيوت الطبقة المرفهة ، وفيه يسمح باستدعاء العوالم والموسيقيين ليجلس الزوج باسترخاء ولامبالاة على الأريكة ومبسم الأرجيلة في فمه ، وإلى جانبه أحب زوجاته ليستغرقا بمتابعة شديدة لأغنيات العوالم ، وفى هذا الجو يقف العبيد يحيطون بالزوجين أو يجلسون القرفصاء ليشاهدوا رقصا يعبر عن الخلاعة والشهوة التي تثير إعجاب الزوجة ، وعلى عكس هذه الصورة تماما يصور "وليم لين" صورة أخرى دينية ، وهى قراءة الخاتمة والتي يدعى إليها ثلاثة مقرئين أو أكثر ، أو إقامة ذكر ، وكثيرا ما تقام قراءة الخاتمة في الصباح أو بعد العصر ، وفى المساء يقام الذكر ، وغالبا ما يكون بعد صلاة المغرب .

والواقع أن تصوير "شابرول" " ووليم لين" هي تصوير لما كان يدور في الحياة الاجتماعية للعائلات المترفة من المماليك ، كما تبدو من خلال حرملك الحريم وما فيه من رفاهية وبذخ وسفه في آن واحد.

الفصل الخامس

أحياء الأولياء وميثولوجيا الموالد



إذا تأملنا التراث التاريخي لأحياء القاهرة العتيقة بآثار مساجد مراقد آل البيت - بيت رسول الله - الذين وفدوا إلى مصر في حياتهم ، أو أتي برؤوسهم لتدفن فى مصر* ومصر القديمة وتنزل الفسطاط والعسكر والقطائع (شاهد ، ص٣٥) ، وكان من عادة الحكام زيارة هذه المراقد وتوسيع مساجدها ودائرة ميادينها لتكون ربه لوفود الزائرين والمريدين.

وأوضح ما يكون في وضع هذه المساجد أنها تولت إلى منطقة جذب سكاني التصقت بها البيوت تبركا بالزوار وحوانيت للبيع والشراء ، كما أنها كانت مسرحا لصراعات مذهبية بين العلويين وأهل الدولة ، ومن أبرز هذه الأحياء : الحسين ، والسيدة زينب ، والسيدة نفيسة، والسيدة عائشة ، وزين العابدين ، والأمام الشافعي .

يبدو أن المصريين بالغوا في الروايات عن أضرحة هذه المراقد ، بوعي كما عند الصوفية أو بغير وعى عند العامة في كثير من الأحيان ، وفى مناسبة الموالد يمكن مشاهدة المتناقضات من طقوس جماعات الدراويش الذين يزعمون القنوت وشطحات الأفكار حول أصحاب الأضرحة في أغاني المنشدين وحركات الذاكرين ، ومع ذلك شهدت بعض من هذه الأحياء صراعات ومعارك حادة من المتشيعين للعلويين من أهل البيت ، وهم الشيعة الوافدين مع الفاطيميين في القاهرة ، وأهل السنة المستوطنين في مصر القديمة والفسطاط والقطائع بمناسبة الموالد وهكذا أصبح * سكان الأحياء تثير الأيدولوجيات الكبرى بين السنة والشيعة .

<u>من أهل البيت:</u>

الحديث عن توصيف أهل البيت وتحديد ماهيتهم بالضبط قد بدأ يتردد بقوة حين أنزلت الآية الكريمة "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا " (الأحزاب : ٣٣) لقد أكدت بعض الأحاديث الشريفة أن أهل البيت يقصد بهم زوجات النبي صلى الله عليه

وسلم وأولاده وبناته خاصة فاطمة رضى الله عنها والأمام على وولديه الحسن والحسين . ومما هو ثابت تاريخيا أن أهل البيت من أحفاد رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بدأوا يتوافدون على مصر بعد معركة كربلاء ، وكان دافع مجيئهم إلى مصر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى بأهل مصر حين بدأ في التفكير في فتحها. (في صحيح مسلم ٢٥٤٣/٢٢٧) " إنكم ستفتحون مصرا ، وهى أرض سمى فيها القيراط فإذا فتحتموها فاحسنوا لأهلها، فإن لهم ذمة وحرمة"، وفى رواية أخرى "ذمة وطهرا" ، وقد فسر البعض حرما وطهرا مارية القبطية التي يقال إنها كانت ابنة المقوقس عظيم القبط فى مصر، والتي أهداها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنجب منها ابنه إبراهيم. (القلقشندى: ص ٢٧٩) .

كان من أشهر من وفد منهم سواء الأصحاب المباشرين أو غير المباشرين هم الإمام الحسين وابنه الإمام زين العابدين وحفيده زيد الإمام الجعفري ، ومن السيدات السيدة زينب ، وعائشة ، ونفيسة ، وسكينة ، وفاطمة النبوية ، وأم كلثوم ، رضى الله عنهم جميعا (شاهد : ص ٦٦) وما يهمنا هنا في حدود دراستنا هو أحياء هؤلاء الأولياء وعلاقتهم بالمكان .

وإذا ما بدأنا بالحسين ، نجد مرقده في موقع بمقر حكم الفاطميين الموالين لحكم أبيه على بن أبى طالب ، وهو تكريم اختص به في مكان الصلاة بقصر الزمرد، ولأن المبنى لونه أخضر فقد سميت المنطقة بالباب الأخضر ، وهى التي تضم مقام الحسين ، وبجوار المسجد مسكن الإيرانيين الذين جاءوا إلى مصر ، وانتشرت الدكاكين والوكالات لتجارتهم من السجاد الشيرازي والتبريزي (القلقشندى) ، ومازال الموالون للمذهب الشيعي يحجون إلى المقام في مناسبة مولد الحسين .

ولكن من هو الحسين ؟

هو ابن على بن أبى طالب ، ابن السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول

الله ، عاش مع جده رسول الله ست سنوات من طفولته ، مات الحسين وله من العمر ستة وخمسون عاما ، واستشهد يوم الجمعة أو السبت الموافق العاشر من المحرم في موقعة كربلاء بالعراق عام إحدى وستين من الهجرة بعد قتال مرير غير متكافئ بنيه وبين جيش اليزيد بن معاوية التي كان قد وجهها إليه عبد الله زياد، عامل يزيد بن معاوية على العراق .

حين لم يكن مع الحسين إلا قلة من أهل بيته ، فمنهم العديد من النساء والأطفال (إبراهيم: ص ٣٧) سقط الحسين شهيدا ودفن جثمانه بكربلاء ، وأمر عبد بن زياد بإرسال النساء والأطفال من الأسرى مكرمات إلى المدينة المنورة ، والقى برأس الشهيد إلى واليه في المدينة "عمرو بن سعيد " ، فكفنها وأمر بدفنها في البقيع .

لقد تعددت الروايات في دفن رأس الحسين ، ويقال إنها في بلاد كثيرة إلى أن استقر الرأي أنها دفنت شفى مصر في موقعها المعروف بمشهد الحسين ، وهو ما يؤكده القلقشندى وابن إياس ، وأنه وصل إلى القاهرة في ٨ جمادى الآخر ٥٤٨-١١٥٣ (الطربيلى : ص٣٦).

السيدة زينب :

أما السيدة زينب فهي ابنة فاطمة الزهراء بنت رسول الله عليه السلام تزوجت من ابن عمها عبدا لله بن جعفر ، كان لها وهى في المدينة مجلس علمي حافل يقصده النساء ، عاصرت في حياتها الصراع السياسي بين والدها الإمام على مع معاوية ابن أبى سفيان ، ولقي والدها مصرعه عام ٤٠ هـ ، ثم مات أخوها "الحسن" عام ٤٩هـ ، وفى وصف دراماتيكي لمعاناتها كاسيرة بعد أن رحلت مع أخيها الحسين إلى العراق ، وبعد أن استشهد في معركة كربلاء وساقوها مع الأسرى عبر موكب الأسرى ساحة المعركة ، فرأت أشلاء الشهداء مبعثرة بجانبها أخيها ، فصرخت يا محمداه ، صلى عليك ملائكة السماء ، هذا الحسين بالعراء مرمل بالدماء ،

مقطع الأعضاء ... يا محمداه ، هذه بناتك سبايا ، وذريتك مقتلة ، ومضى موكب الأسرى والسبايا إلى دار إمارة الكوفة ، ووقف الأمير "عبد الله ابن زياد" يعبث برأس الشهيد الحسين بقضيب من حديد ، بعد أن استقرت في الجلسة دخلت على هذا الأمير ، وجلست دون أن يأذن لها ، ودار حوار بينها وبينه ، وعندما شهد صبياً بين الأسرى هو "على زين العابدين" بن الحسين أمر بقتله ، فأخذته عمته السيدة زينب بين ذراعيها وهى تقول : يا ابن زياد حسبك منا، أما رويت من دمائنا ، وهل أبقيت منا أحداً ، ثم انحنت على الصبي تفتديه ، واحتضنته لتمنع قتله ، فأمر "ابن زياد" بإرسال "زين العابدين" مع الأسرى إلى دمشق ، إلا أن السيدة زينب التي كانت بين الأسرى فضلت أن تحيي بجوار جدها رسول الله ، ولكن حكام بنى أمية وجدوا خطراً في وجودها في المدينة لأن ذلك يحرك مشاعر الناس ضدهم ، وطلب منها والى المدينة المنورة أن تغادرها وتختار أي منطقة لتقيم فيها ، ففضلت أن ترحل إلى مصر ، ووصلتها في شعبان عام ٦١هـ ، وخرج والى مصر "مسلمة بن مخلد الأنصاري " يستقبلها على رأس جموع غفيرة من المصريين، ومضى بها تكريماً لها إلى داره حيث أقامت حوالي عام لم تبرحه حتى توفيت عام ٦٢ هـ ، وفى عام ١٤٥٧م أقام الوالي العثماني " على باشا الوزير " جامعها المعروف باسمها ، وكانت أرض المكان تعرف باسم قنطرة السباع نسبة إلى نفس السباع الموجودة على القنطرة التي كانت مقامة على الخليج الذي كان يخرج من النيل عند فم الخليج ، وكانت السباع ترمز إلى الظاهر بيبرس الذي أقام القنطرة ، وقد تغيرت طبوغرافية المكان بردم الجزء الأوسط من الخليج ، وبردمه اختفت القناطر وتم توسيع الميدان ، وأصبح الحي كله هو حي السيدة زينب حتى الآن . (شاهر : ص ١٤٧)

السيدة سكينة :

هي السيدة " آمنة بنت الحسين بن على بن أبى طالب كرم الله وجهه" ، وضريحها يتبع حي الخليفة ، أمها "رباب بنت امرئ القيس" ، ولدت عام ٤٧هـ ، وسميت باسم جدتها أم "سيدنا محمد رسول الله" ، ثم لقبتها امها رباب باسم "سكينة" ، لأن نفوس أسرتها كانت تسكن إليها لفرط حبوبيتها .

خرجت سكينة من المدينة مع والدها الحسين عام ٦٠ هـ عندما كان يريد الكوفة ليجاهد بأهلها ضد الطغيان الأموي ، وبعد استشهاد الحسين وأصحابه كانت ضمن السبايا ، ثم عادت إلى المدينة لتعيش مع أمها رباب التي ماتت بعد عام .

وكانت سكينة سيدة المجتمع الحجازي ، وهى أول من أسست فكرة الصالونات الأدبية، ثم تبعتها سيدات قريش وامتازت ندواتها بالعلم والشعر والأدب الرفيع وماتت السيدة سكينة عام ١١٧ هـ .

وضريح "السيدة سكينة" يقع بحي الخليفة في شارع يحمل اسمها ، وهناك روايات عن وجودها في مصر تقول إنها جاءت مع عمتها السيدة زينب ، وقالت روايات أخرى إنها عادت إلى الحجاز بعد وفاة عمتها زينب ، وتعلق "سعاد ماهر" على أن اختلاف الرواة حول ضريحها قد يصدق عليه أضرحة الرؤيا ، فإذا رأى ولى من أولياء الله الصالحين في منامه رؤيا مؤداها أن يقيم مسجداً أو ضريحاً لأحد من آل البيت أو الولي المسمى في الرؤيا ، فكان عليه أن يقيم الضريح أو المسجد باسمه . (سعاد: ص ٣٤) .

السيدة نفيسة :

أما عن ضريح "السيدة نفيسة" ابنة الإمام الحسن الأنور بن زيد الأبلج ابن الإمام الحسن بن على بن أبى طالب ، ولدت بمكة عام ١٤٥هـ ، ونشأت بالمدينة المنورة ، وكانت لا تفارق الحرم النبوي الشريف ، حجت

٣٠ حجة معظمها سيراً على الأقدام ، كانت تحفظ القرآن الكريم وتقرأ تفسيره وهى تبكى ، زارت مع زوجها قبر إبراهيم الخليل ، ثم رحلا إلى مصر ، وكان لقدومها إلى مصر أمر عظيم ، فقد تلقاها الرجال والنساء بالهوادج من العريش، وأحبها أهل مصر ، وكانوا يعتقدون في كرامتها ، فكان إذا نزل بهم أمر جاؤا إليها يسألونها الدعاء ، وبسبب ازدحام الناس حول بيتها فكر زوجها أن يرحل معها إلى الحجاز، ولكنها رات في المنام رسول الله يقول لها : لا ترحلي من مصر ، فان الله تبارك وتعالى يتوفاك بها".

واقامت السيدة نفيسة بمصر سبع سنوات ، وفى شهر رجب ٢٠٨هـ مرضت ، وحفرت قبرها بيدها في بيتها ، وكانت تنزل فيه وتصلى كثيراً ، وقرأت فيه ١٩٠ خاتمة للقرآن ، وكانت إذا عجزت عن القيام لضعفها تصلى قاعدة وتسبح أكثر وتبكى بكاء أكثر ، ولما جاءت الساعة ، وكان ذلك يوم الجمعة من شهر رمضان قرأت سورة الأنعام ، وكان الليل قد هدأ فلما وصلت إلى قوله تعالى: (لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعلمون) غشى عليها ، وفاضت روحها إلى رحمة الله .

ومما يذكر من أهمية زيارة قبر السيدة نفيسة أن السلطان "الظاهر بيبرس" بعد توليه حكم البلاد توجه إلى قبرها ليقرأ الفاتحة إلى حضرة النبي ثم إلى روح السيدة ، وبعدها بسط يده تحت القبة داعياً أن تقضى له حوائجه ، وهو بذلك كان يؤكد العقيدة الشائعة بين العامة في كرامات الأولياء والشفاعة عند الله .

السيدة عائشة:

نأتي بعد ذلك إلى ضريح السيدة عائشة ابنة الإمام جعفر الصادق ابن الأمام محمد الباقر ابن الإمام الحسن بن على زين العابدين ابن الإمام الحسين ، جاءت إلى مصر في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور فرارا من بطشه .

لقد تحدثت كتب السيرة والتاريخ عن صاحبة الضريح وصفاتها إنها من العابدات القانتات المجاهدات ، وكان من مأثوراتها: "إن الخوف من الله يعنى الهروب إليه"، وكل ما يقال عنها إنها من آل البيت ، جاءت إلى مصر مع إدريس بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب ، لاقت عند المصرين حفاوة عند قدومها ، وتوفيت عام ١٤٥هـ ، ودفنت في موقع بيتها بباب القراقة بحي الرملية بالقلعة . (شاهر: ص ٢٩٠)

زين العابدين:

بالنسبة لضريح زين العابدين الذي اشتهر الحي باكمله باسمه ، فهو الإمام زيد ابن على زين العابدين ابن الإمام الحسين ، وعندما نقرأ سيرة هذا الإمام الذي ينتسب إلى آل البيت نجد أنه حاول في سيرته تحقيق حلم الخلافة ، واتبع خطوات جده الأمام الحسين ثم جده الأعلى الإمام على .

وقد بدأ تحقيق أولى خطوات الحكم بتكوين جيش صغير من مجموعة من أتباعه ، ثم أرسل للكوفة ولكنه هم بالرجوع إلى المدينة ، فتنبة أهل الكوفة وأقنعوه بالبقاء لمحاربة بنى أمية ، وتحقيق حلمه وحلم أجداده ، والغريب في تاريخ أهل الكوفة أنهم أعطوه "ميثاقا لمناصرته بنى أمية ، إلا أنهم خذلوه كما خذلوا جده الإمام الحسين وجده الإمام على بن أبى طالب ، وحينما دار الخراب تفرق أهل الكوفة ، وبقى فئة قليلة من أهله تقاتل حتى سقط هو الآخر شهيدا ، وكان ذلك في شهر صفر عام ١٢٢ هجرية .

ودفع له ما دفع لجده الإمام الحسين ، حيث قطعوا راسه وأرسلوا به إلى الخليفة في دمشق ، ودفن رأسه في الكوفة بعد انتهاء المعركة ، أما راسه الشريفة فيؤكد الكندي قدومها إلى مصر ، ثم طيف بها على ممر جامع عمرو في سنة ١٢٢ هجرية ، فسرقت ووضعت فى مكانها وبنى عليها مشهد

في الدولة الفاطمية على التلال المتبقية من حرق مدينة الفسطاط . ويطلق الأثريون على هذه المنطقة الحمراء القصوى نسبة إلى خطة بنى الأزرق من الذين حضروا منهم الفتح الإسلام (القلقشندي : ص٣٢٩، مبارك : ص٢٣).

الإمام الشافعي:

وهو يتصل بنسب رسول الله عليه السلام عند الانتهاء إلى عبد مناف ، هذا من جهة الأب ، أما من جهة أمه فينسب إلى فاطمة بنت عبد الله بن الحسين ، إذن فهو ينتهي في خط النسب لبيت رسول الله ، وقدم إلى مصر عام ١٩٩هـ - ٨١٤-٨١٥م في أول خلافة المأمون ، وقيل إن سبب مقدمه أنه جاء مع العباس خليفة مصر ، وأثناء قدومه إلى مصر نظم بيتين من الشعر لشوقه إلى مصر:

وإني أرى نفسي تتوق إلى مصر *** ومن دونها عرض المهانة والفقر

فلله ما أرى : العز والفئ *** أساق إليها أم أساق إلى قبري

وأول ما كتب الشافعي كان للرد والمناظرة مدافعاً عن فقه الحديث أو فقه المدينة ، أو فقه مالك بالذات ، ولكن بعد أن استقل بطريقته في الاجتهاد والبحث والفتوى أخذ يؤلف الكتب ويدون فيها المبادئ التي وضعها ، والاستنباط ، وظل متفرغا ناشراً للعلم ، ملازماً للاشتغال بجامع عمر إلى أن توفى في رجب أربع ومائتين من الهجرة ، عن أربع وخمسين عاماً .

وقد أوصى قبل وفاته ان تصلى عليه السيدة نفيسة ، فلما مات أحضروا نعشه فضربت لها ستارة وصلت عليه من خلفها ، ثم حمل من عندها ، ودفن بتربة أولاد عبد الحكيم ، وظلت هذه المقبرة موضع تكريم الزائرين يقصدونها للزيارة والتبرك ، وجددها صلاح الدين الأيوبي ، وبني

بجوارها مدرسة الصالحية ، وعرفت بتاج المدارس ، وقد تعاقب على التدريس فيها علماء المذاهب الشافعية حتى نهاية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ، وقد جدد المدرسة الصالحية قايتباي ، وعندما عطلت الشعائر الدينية هدمها "عبد الرحمن كتخدا" وأنشأ مكانها مسجداً كبيراً عام ١٣٠٩هـ - ١٨٩١ م . (عويس ص ٥٨-٥٩) .

وبجوار قبر الشافعي دفنت الأميرة "شمس" زوج صلاح الدين ، وابنة الملك العزيز عثمان ووالدة "الملك الكامل" ، ولقد شيد ولدها " الكامل" في جمادى الأول ٦٠٨هـ - أكتوبر ١٢١١م قبة ضمت قبر الشافعي وبعض الأسر من الأيوبيين ، ويوجد فوقها مركب صغير من النحاس لوضع الحبوب فيه لإطعام الطيور .

المهم أنى زرت هذا المسجد ، ولفت نظري تلك القصاصات الورقية بجوار الضريح التي لم أتمكن من الوصول إليها ، والواقع أن هذه الأوراق كانت مجال بحث سيد عويس عام ١٩٦٥ بعنوان: "رسائل إلى الإمام الشافعي" .

وقد خلص "عويس" من بحثه إلى أن الإمام الشافعي يمثل صورة مضيئة في عقول مرسلي الرسائل بانه شخص ذو سلطان عليهم ، فضلاً عن أنه شخص مؤتمن على الأسرار ، وهو أيضا شخص قادر يقوم باختصاصات متعددة هي من صميم اختصاصات وزاره ومصالح الداخلية والعدل والشئون الاجتماعية والعمل والصحة ، فضلاً عن بعض الاختصاصات الأخرى غير الواقعية والنفسية والقيمية .

الواقع أن ما شجع فئات المجتمع المصري على زيارة القبور والتبرك بها هو ما كان يألفه الخلفاء الفاطميين الذين كانوا يحرصون على زيارة كل ما هو منسوب إلى ذرية "على ابن أبى طالب" . وكان الخلفاء يشقون القاهرة في مواكب لزيارة قبورهم ، وهو ما رسخ في نفوس الناس استجابة هؤلاء الأولياء للدعاء لتحقيق مصالحهم ، ورفع الظلم عنهم ، وربما يكون

اكثر المروجين لقصص معجزات الأولياء هـم حـراس مـدافنهم المسترزقين مـن النـذور ، دون أن يعـرف الكـثير مـن المترددين على قبور هؤلاء الأولياء تاريخهم ومآثرهم ، بل والأكثر من ذلك أن بعض سكان الأحياء المجاورين لهذه القبور لا يعرفون عنها إلا أسمائها .

صحيح أن المصريين احبوا آل البيت، وأكرموا وفادتهم واتخذوا مـن تاريخهم موالد يحتفلون بذكراهم فيها ، وبهذه المناسبة يذكر "على مبارك " عدد الموالد في القاهرة وضواحيها فاحصاهم بثمانين مولد .

الواضح أن الأحياء التي اقترنت بآل البيت تحولت أضرحتها إلى مساجد ، وعمران ، وسكان ، وأحياء عامرة بالحياة الاجتماعية . واللافت للنظر أن معظم هذه الأحياء تاخذ شكل مثلث متكامل الأضلاع ، فحي السيدة عائشة في الشرق ، وحي السيدة سكينة في الغرب ، وبينهما جامع السيدة نفيسة .

وإذا اتجهنا غرباً نجد جامع "زين العابدين" ، وفى أقصى شرق القاهرة حي الأزهر والحسين ، فاسم الأزهر منسوب إلى "فاطمة الزهراء". (الطرابيلى : ص ٢٧٤) .

والشائع أن أحياء الأولياء اقترنت بأسمائهم ، كما اقترنت بكثافة السكان حولهم والتبرك بإطلاق أسمائهم عل أبنائهم . وفى موالدهم تتحول الشوارع إلى نشاط اقتصادي واحتفالات دينية وترويحية ، تبدو فيها المتناقضات من الوعي واللاوعي بالمعتقد الديني ، وهو ما نطلق عليه ميثولوجيا الموالد .

ميثولوجيا الموالـد :

نقصد بالميثولوجيا تلك المعتقدات الدينية أو العامة التي يكتسب فيها الوهم معتقدا أسطوريا حول كرامات الأولياء أو من يزعمون الولاية ، ويروج لها بشكل واسع في مناسبات الموالد ، وفى هذه المواسم تكثر

حلقات الصوفية ومواكب الدراويش ، والولائم والوقادات أمام البيوت والدكاكين ، وتزدحم الفنادق والمقاهي بالوافدين من خارج القاهرة ، وتنشط الأسواق والمطاعم والباعة الجائلين والشعوذين والمتسولين وأرباب الحرف المرذولة .

لقد ظلت عادة الاحتفالات بأولياء الله الصالحين تشكل عقيدة في كرامات هؤلاء الأولياء ، ومن ثم يحرصون على الاحتفال بها ، بل يدخرون لها للإنفاق في هذه المناسبة. الشيء الجدير بالاهتمام أن الفرنسيين لم يبطلوا عادة الموالد إلى حد أن "بونابرت" قبل دعوى عشاء بمناسبة مولد السيدة زينب في أوائل رجب ١٢١٣ (الجبرتي: ص ٢٤٤). وفى مولد"الحسين" شارك الفرنسيون بتقديم الألعاب في ميدانه ، وضربوا طبولهم ، ولكن كان للشيعة مظاهر أخرى بالنسبة للحسين ، فمعظمهم يفضل السكن في الحي المنسوب إليه ، وفى مولده يتظاهرون بالزينة الفاخرة والولائم ، ويبدأون ضربهم المشهور عنهم بضرب جباههم وصدورهم والدم يسيل على ملابسهم ، وكان ذلك من عوامل الاضطراب بينهم وبين أهل السنة .

تمثل مظاهر الاحتفال عند الشيعة استفزازا للسنيين إلى حد الأذى، ولقد وصل تماديهم بفرض مشاركة السنة في مواكبهم التي كانت تشكل حشداً من المغاربة والسودانيين يستعرضون ضرب أبدانهم ، والبكاء على الحسين و "زين العابدين" ويعتدون على من لا يشاركهم طقوسهم ، وبالمقابل كان السنيون يكيدون لهم في اختيار مناسبات يحتفلون بها ، وظل الصراع قائماً فيما بين السنة والشيعة طوال الحكم الفاطمي ، وامتد إلى التاريخ المعاصر. (سرور : ص ٨١)

الواقع أن مظاهر الاحتفالات بالمولدين كان للصوفية فيهما من التناقضات بين الأذكار وتلاوة القرآن في مسجديهما ، وبين فئات فيها المشعوذين ، وما يمارسونه من أشكال الانحراف ، وقد انتقد " المقريزي "

هؤلاء في عصره ، ووصفهم بسقط المتاع ، الذين لا ينتسبون إلى علم أو ديانة .

وللحقيقة فإن هؤلاء الأدعياء، صاروا ظاهرة اجتماعية لا دينية في أواخر العصر المملوكي، واتخذوا من التصوف دروشة، كأداة للكسب، ووسيلة لاتقاء الظالم، وطريقاً إلى المجد الموهوم، والسمعة الطيبة بين عامة الناس، وهو ما يتعارض شكلاً وموضوعاً مع مفاهيم التصوف الإسلامي.

ومما يذكر ان أهل الدولة كانوا يشاركون عامة القاهرة في مثل هذه المعتقدات الباطلة، يساعدهم في ذلك المتصوفة أنفسهم من سكان الخوانق والربط والزوايا الذين اعتمدت عليهم الدولة الفاطمية في نشر روح السلبية والتواكل بين العامة، وفى نفس الوقت التصدي لعلماء الفقه من المستنيرين ، وينتقد " ابن جبير " ميثولوجيا الموالد عند العامة فيما يبدو من وهم الكرامة ، ومظاهر الطقوس فيها ، بجانب انتقاد الرحالة الذين زاروا القاهرة وشاهدوا حركات وأفعال العامة حول الأضرحة بزعم التبرك . (علاء : ص ١٣٢)

ويصف "الجبرتي" سلوك هؤلاء من الذين يزعمون الصوفية أنهم تجاوزوا سنن الأخلاق بسيرهم عرايا في الشوارع يتبعهم الأطفال والعوام، يحاولون الاقتداء بحركاتهم من حيث انتزاع الملابس ، والتحنجل في المشي زعماً أن بركة الشيخ مسته فجذبته ، إلا أن ما هو أخطر هي حركات هذيان هؤلاء الأدعياء ، وكثرة اللفظ والتكلم بفاحش القول(العذوى: ص٧٦) ومما كان يدعم تقوية مظاهر هذه الاحتفالات رواة القصص الذين يصورون أصحاب الأضرحة بالأساطير والمعجزات.

موالد الأدعياء :

ومع كل ذلك لم يحارب الفرنسيون عقيدة الناس في الكرامات ، بل على العكس شجعوا على التمادي فيها ، من ذلك مثلا إعادتهم لمولد السيد

على البكري المدفون بجامع الشرابية بالأزبكية بالقرب من الرويعي في ٢ من ربيع الثاني سنة ١٢٠٤ ، وقد يخرجنا هذا المولد عن موالد الأولياء ، إلى مولد الأدعياء ، وهو ما ذكره "الجبرتي" في حوادث سنة ١٢٠٧ م إن هذا "السيد على" كان من البلهاء ليس له علاقة بالشيخ البكري — وكان يسير في الأسواق عاريا مكشوف السواة ، وكيف بدا لأخيه حينما رأي ميل الناس له اعتقادا منهم في كرامته كما هي عادة أهل مصر في أمثاله ، أن يشغل هذا الميل في على أخيه ويلبسه ثيابا ، ويشيع في الناس بأنه أذن له بذلك ، وأنه تولى " القطبانية " ، وكيف أقبلت النساء والرجال على زيارته ، وكيف أنصتوا إلى "هذيانه ثم تأويلها بما في نفوسهم، كما بالغ أخوه في التحدث عن كراماته والتلاهي وفعل المحرمات، وادعى أن في وسعه الاطلاع على خطرات القلوب ، فغمر بالهدايا والنذور ، وكيف تابعت نساء الأمراء والأكابر في التقرب إليه بكل الوسائل. ويشير " الجبرتي" في وصفه قائلا لهذا راج حال أخيه واتسعت أمواله ونفقت سلعته ، وزادت تجارته ، وسمن الشيخ المذكور من كثرة الأكل والدسومة والفراغ والراحة حتى صار كالبو العظيم ، وحين مات أقام له أخوه مقاما ومقصورة ، وواظب على إحاطة الضريح بالمداحين الذين يتصايحون ويتصارخون ويمرغون وجوههم على نافذته ومقامه ، ويفرقون بأيديهم من الهواء المحيط به ويضعون في أعبابهم وجيوبهم ، ثم أهمل شانه في جملة المهملات ، وترك مع المتروكات .

ثم يفسر "الجبرتي" أهداف الفرنسيين في الترخيص من إعادة هذه الظاهرة فيقول "فلما فتح أمر الموالد والجمعيات ورخصوا بذلك لما رأوا فيه من الخروج على الشرائع واجتماع النساء ، واتباع الشهوات والتلاهي وفعل المحرمات ، أعيد هذا المولد من جملة ما أعيد.

وفى وصف آخر لأحد الأدعياء المدفون بزاوية بالقرب من هذا المكان بالأزبكية وهو الشيخ درويش العشماوى ، وله مولد يحتفي به بالمصادفة في

نفس موعد مولد "رسول الله صلى الله عليه وسلم" ، كما يقام ليلة كل جمعة وفى حماس ديني غير عادى بهذه المناسبة ، وكان أحد الأقباط الذين أسلموا يصرف على هذا المولد بسخاء ، ويصف لين هذا الشيخ بأنه كان موضع إجلال للناس ، كما كان مختل العقل ، وكان يدعى الجنون ، وكثيرا ما كان يتناول الخبز والماكولات ويدوس عليها ، أو يقذف بها في القذر ، ويقوم باعمال اخرى يحرمها الدين تحريما مباشرا ، ومع ذلك فقد اعتبره الناس وليا فاضلا . (وليم لين :ص ١١١)

الواقع أن إهمال استرجاع وترديد معجزات وكرامات الأولياء يؤدي إلى إنهاء تاثير الولي وإلغاء وظيفته لدي مريديه ، فالولي يلعب دورا مهما في النظام العقائدي لكثير من الناس ، حيث تنتقل الجماعات المختلفة من مكان إلى آخر لتشارك في الاحتفال بأيام المولد والحصول على البركة من الولي ، ولا يقتصر الاحتفال على الرجال بل يصطحب الرجال معهم النساء والأطفال ليكتسبوا ايضا البركة ، وليعتادوا على الذهاب إلى زيارة الولي وليتعلموا من القصص والحكايات التي تشير إلى معجزاته وكراماته ، بحيث تصبح بعد ذلك زيارة الولي شيئا مهما في حياة الكثير من الجماعات الشعبية في مصر ، فقد استطاعوا عن طريق ما حققوه من نفع وفوائد من المولد ، ليس فحسب الفوائد المادية ، وإنما أيضا الجانب المعنوي الذي يتمثل في الإحساس بالرضا وبالراحة السيكولوجية من ضغوط الحياة اليومية ، الأمر الذي يجعلهم يعتادون بعد ذلك على زيارة الأولياء ، وخصوصا لأنها تسمح لهم بقضاء فترة من الاستمتاع والترويح ، المهم بان تكون للولي كراماته المعنوية التي تعتمد على انه ليس مثلا وقدوة ونموذجا اخلاقيا فحسب ، وإنما حاولوا أن يضفوا عليه كثيرا من القدرات الخاصة والكرامات الحسية المختلفة ، بل اختلاق القصص التي تدل على استمرار الولي بعد وفاته في أداء وظيفته والقيام بدوره ، وأنه على استعداد لإجابة دعوة الداعي إذا ما دعاه (حسن: ص ١٨) ، ومن هذه النماذج "الشيخ أحمد

صادومة" وكان رجلا مسنا ذا شيبة وهيبة اشتهر بالروحانيات وتحريك الجمادات والسيماء ، والمعروف أن علم السيماء ظهر عند غلاة المتصوفة ، ويعنى اتجاههم إلى كشف حجاب الحس وظهور الخوارق على أيديهم ، والتصرف في عالم العناصر ، وذلك بإحالة النوعية من صورة إلى أخرى ، لقد استطاع الشيخ "صادومة" اجتذاب كبار الفقهاء إليه ، ومن هؤلاء مفتى الشافعية الذي أخذ يروج له على أنه من أرباب الأحوال والمكاشفات ، خاصة أن هذا الترويج كان بين عدد من الأمراء خاصة محمد بك أبو الدهب ، إلا أن يوسف بك الكبير احد مماليك ابو الدهب تصادف أن رأى في محظيته كتابة على سوأتها كتبها لها صدومة ليحببها إلى سيدها . وأمر بالقبض عليه وتفتيش بيته الذي وجد به تماثيل مشينة ، فأمر بقتلة وإلقائه في البحر، وقام بعرض هذه التماثيل ومخلفاته المنافية للأخلاق على الأمراء ، ويقول انظروا أفاعيل المشايخ ، وبناء على ذلك عزل إمام الشافعية من وظيفته بعد أن انساق إلى فكر هذا المشعوذ الفاسق (الجبرتي ٢٢، ٢٣) لقد زعم دعاة التصوف التقشف ولبسوا عباءتها ، واندسوا بين الناس بالتأويل في تفسير القران واستخدموا مصطلحات يعجز الرجل العادي سليم الفكر عن فهمها ، وادعوا أنها أسرار إلهية لا يراها إلا الخاصة ، فضللوا الناس إلا أن أخطر ما في مظاهر الاحتفالات الدينية سلوك جماعات الدراويش مدعى التصوف ، وما يمارسونه في من ذكرى مولد "رسول الله " من طقوس تبتعد تماما عن الثقافة الصوفية في الإسلام ، ومن مظاهر هذا الانحراف طقوس الدوسة ، وهى انبطاح ما يزيد عن ستين درويش على الأرض ليمر على أجسامهم شيخ الطريقة العدوية . وفى هذه اللحظة تتعالى الابتهالات والتكبير ، وبالرغم من خطورة هذا السلوك وما كان يترتب عليه من ضحايا ، إلا أن الناس ظلت تعتقد في القوى غير الطبيعية التي منحت هؤلاء الكرامات ، ويذكر "لين" إن هذه الطقوس كانت تمارس في ميدان الأزبكية أمام منزل الشيخ البكري شيخ الطرق

الصوفية ، ثم تنتهي بحلقات ذكر في بيته ، وبعدها يقوم الدراويش باستعراض وأكل الثعابين الحية ، غير إن شيخ الطريقة العدوية أعلن تحريمها بين مريديه.

الواقع أن هذا السلوك كان شائعا في بعض الموالد ، بالرغم من تعارضه الشديد مع الفكر الديني ، إلا انه كان يلقى قبولا سياسيا عند الفرنسيين ، فشجعوا على هذه الممارسات ، واعتبروها وسيلة لتغييب العقل الاجتماعي عن أمور التفكير في دينه ووطنه ، لذلك شجعوا على إحياء الموالد بكل ما فيها من انحراف ، وكان "الجبرتي" يدرك أن غاية الفرنسيين منها هو استمالة العامة إليهم ، ووصف سلوك المشعوذين بالطرق الشيطانية المعروفين بالأشاير وهم السوقة ، وأرباب الحرف المرذولة الذين ينسبون أنفسهم لأرباب الطرق الصوفية . (سمير: ص٣٠٢)

الباب الثاني

- مقـــــدمة.

- الفصل السادس : القلعـــة وميدان الرميلة.

- الفصل السابع : ميـــدان بركة الفيل.

- الفصـل الثـامن : ميــــدان بركـة الأزبكيـة ، وملامـح على بركة الرطلى.

- الخلاصـــة.

مازلت ودراستنا في حوار حول سؤالنا الأساسي: أيهما يهيمن على الآخر الطبوغرافيا أم الإنسان ، بعد المناقشات السابقة في الجزء الأول من هذة الدراسة قد يبدو هنا أن الإجابة أصبحت سابقة على هذا السؤال ، ومن ثم نكون قد أخرجنا السؤال عن مضمونه ، ولكن إذا طورنا السؤال كيف! أو ماذا بعد أن هيمن الإنسان بسلطانه على برك القاهرة وهضبة المقطم وحولها إلى ميادين وأحياء .

ومن هنا تأتى الإجابة المقارنة في مضمون تغير المكان في مراحل الزمان لتعطينا صورة ما كانت عليه من واقع ، وما آلت إلية من تغير في أرض هذا الواقع .

أن دور هذه الميادين بأحيائها وشوارعها شهدت تغيرات جذرية في عمرانها ، وحركات اجتماعية كانت ملحمة في تاريخ ثورات القاهرة ، ولتأكيد أهميتها فهي عند علماء الاجتماع السياسي تؤدى قبل كل شئ إلى التغير الجذري في النظام السياسي والمطالبة بعزل الحكام ، وعادة ما يكون التغير عن طريق العنف ، وينطبق هذا التصور على حقيقة التوترات الأربع في ميادين القاهرة التي عبر فيها المجتمع عن مواقفه الجماعية ووحدته الوطنية ، فكانت الميادين تستوعب حشودهم في وحدة المطالب ، كما أفرزت أبطالا وطنيين سجلوا تاريخهم في أماكن الأحداث، هذا بجانب الصراعات والمعارك التي شهدتها هذه الميادين بين المماليك والعثمانيين ، وأخيرا بين الفريقين معا وجيوش الفرنسيين ، ويكفى أن ننظر في هذا الجزء من الربط بين المتغيرات الطبوغرافية في المدينة في سلسلة جدلية بين المكان والإنسان وصور الأحداث، بكل ما فيها من تشابك وتشعب وتعقيد ، ويبدو هذا التعقيد بين التحول والثبات في البناء العمراني للمدينة .

إننا لا نستطيع أن نعطى هذا التحول قيمة دون تجربة المجتمع مع أحداثه ووعيه بمحيطه الاجتماعي السياسي ، الواقع أن التجربة هي

خلاصة الأفكار والأحداث ، فهى مقولات تاريخية ، ولكي نفسر هذه المقولات في إطارها الصحيح فلابد من الوصول لفهم الحقائق ، ولن يتسنى لنا فهمها دون المنهج العلمي ، ولما كانت مشكلة الدراسة هي محيطها المكاني التي تبدو متفرقة فيزيقيا على أرض المدينة ، وهو ما شجعنا على دراستها كوحدات افتراضية بضوابط منهجية ، وقد اخترنا لها منهجا ملائما للتحليل وهو تحليل الحدث ، وهو المنهج الشائع عند علماء الانثروبولوجيا في المقارنة المتتابعة زمنيا ، وهو يفيد في تحليل العلاقة بين وحدات المدينة في الزمان والمكان داخل المقارنة لتاريخية ، وطالما نحن نستمد معارفنا من الأزمان ، فالتاريخ هو أكثر العلوم احتواء وأشدها تغلغلا في حياة المدن ، وبطبيعة الحال أصبح التاريخ يدخل ضمن أسرة العلوم البينية مع الجغرافيا والانثروبولوجيا وعلم الاجتماع والتحليل النفسي ، ومن هنا يمكن القول أن هذه العلوم تلتقي في التحليل والتفسير في دراسة القاهرة كعاصمة في تاريخها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي ، ويمكن أن نركز على الأحداث في سياقها الزمني المقارن ، وفى ضوء دراسة المكان كانت الدراسات الأيكولوجية مشغولة بالعلاقة الثنائية بين الطبيعة والثقافة ، فكانت تؤخذ كمسلمة في تطور الأنثروبولوجيا الحضرية ، وفى التسعينات واصلت الأنثروبولوجيا الاهتمام بعلاقة سلوك الإنسان بالبيئة ، وأهمية ذلك على سلوكه وثقافته (Milton : p33) إلا أن علماء الاجتماع نظروا إلى الأيكولوجية إلى حقيقة مؤداها أن أفراد المجتمع يعيشون في إطار بيئة مكانية ، مع أن هناك عوامل اجتماعية تؤثر في هذه البيئة ، إلا أنها تبدو وكأنها طبيعية يعتمدون عليها ، بينما تمارس عليهم تأثيرا كبيرا ، وعلى الأخص فيما يتعلق بعناصر الحياة الحضرية . (الحسيني : ص ١٧٠) ومن ثم أصبحت الأيكولوجية مفرغة من معطياتها التاريخية ، والعلاقة الجدلية بين التغير

والتغير فى البيئة الطبيعية وانعكاساتها على حياة المدينة .

إن الفكرة الرئيسية للربط بين العلوم الاجتماعية ودراسة المدينة ، تشير إلى مفهوم التهجين في مجالات البحث (Dogan:P27) وهذا ما يساعدنا على رؤية شمولية للمتغيرات الطبوغرافية في أرض العينة في ميدان القلعة وبركة الفيل ، وبركة الأزبكية وبركة الرطلى ، وهي وحدات الدراسة ، وهى ليست منعزلة عن بعضها ، ولكن تجمعها أحداث المدينة في ظروف الزمان .

الفصل السادس

القلعة وميدان الرميلة

تعد هضبة القلعة من الثوابت الفيزيقية في المكان ، كما فرض وجودها مساحات واسعة تحت هضبتها شكلت ميدانا رحبا ، هو الرميلة ، تعددت فيه المتغيرات العمرانية والأحداث السياسية ، بحكم ارتباط هذه القلعة بقصر الحكم ، ونستطيع أن نميز هذا الموقع من وصف " المقريزي" بأن موقعه تحت قلعة الجبل ، ويقال عنه الميدان الأسود ، وميدان لقبق ، والميدان الأخضر ، وميدان السباق ، وهو ميدان السلطان الملك الظاهر ، ثم أطلق عليه ميدان الرميلة في عهد الظاهر بيبرس نسبة إلى رمى السهام ، وحاليا هو ميدان صلاح الدين ، وتقترن أهمية الميدان بقلعة الجبل ، وما لهذا الموقع من وضع استراتيجي ودور في نظام الحكم، وكان موضعها فيما سبق يعرف بقبة الهواء ، إلى ان انشاها للسلطان "الملك الناصر صلاح الدين ابن أيوب " قراقوش" (الطائر الأسود) وذلك في سنة ٥٧٢ هجرية ، وصارت من بعده دار الملك بديار مصر . (المقريزي : ج ٣ ص ٢٠٦)

أما الهدف من بناء القلعة فكان حماية القاهرة من الصليبيين ، بالرغم من أن صلاح الدين لم يستقر حكمه في القلعة بشكل دائم إلا أن الملك الكامل محمد هو الذي استقر فيها عام ١٢٠٧ م لإدارة الحكم .

والواقع أن موقع القلعة له طبيعته الدفاعية ، بل إن هذا الموقع ذاته كثيرا ما يكون هو العامل المتحكم في نمو المدينة ، فوجود حي ملكي كثيرا ما ينشأ في مركز حضري ، أو أرض جديدة ، فيصبح هو ذاته مركزا ينمو من حوله التجمع الحضري نتيجة لنزوح كثير من الناس إليه، ممن تجذبهم أجواء السلطة والثروة والشهرة التي يضفيها البلاط على كل ما يتصل به أو يقترب منه ، وليس المقصود بذلك هو وجود قصر ملكي، إنما المقصود تجمع يضم مقر الحاكم وديوانه ، وقصور الأمراء من حوله والإدارات ومساكن الحرس الخاص ، وهى بطبيعة الحال مجتمعات تختلف في الشكل والحجم تبعا لنوع الحكومة والمجتمع ، وقد يقوم هذا المجتمع في القلعة ذاتها في عصور الثورة والاضطرابات حتى يتمكن من إدارة

شئون الدفاع عن المدينة ، أما في أوقات الرخاء والهدوء والنجاح والتقدم فإن هذا البلاط قد ينتقل إلى المناطق الأخرى المجاورة والأكثر اتساعا ورحابة ، ويشجع الحاكم على جذب الأمراء ورجال الدين والتجار والطبقات الغنية الموسرة لسكنى الأحياء المجاورة .

ومن الحقائق التاريخية أن " الملك الكامل محمد " حينما استقر بالقلعة في عام ١٢٠٧ لإدارة الحكم ، حوّلها من مدينة ملكية تخص كبار الوزراء والجيش والأثرياء إلى مدينة لعامة الشعب ، بعد أن نقل سوق الخيل والجمال والحمير إلى ميدان الرميلة ، وبدأ الزحف العمراني من الدرب الأحمر والمحجر وجهة القطائع ، بعد أن كانت بعض هذه المناطق مقابر وبساتين، وعاشت الجهة فترة من الازدهار العمراني بحكم موقع مقر الحكم . وحركة الوفود إلى هذا المقر من الرسل الأجانب (الدبلوماسيين).

وأثناء حكم الظاهر بيبرس من المماليك البحرية بنى قصرا أسماه الدار الجديدة يشرف على ميدان الرميلة ، وبنى بالقلعة دار كبيرا لولده الملك السعيد ، وأنشئوا دورا كبيرة للأمراء بظاهر القاهرة مما يلي القلعة وإسطبلات ، وأنشأ حماما بسوق الخيل لولده ومقره (القرافول) وبعض عمارات والدة الخديوي إسماعيل .(مبارك : ص ٨٣)

لقد شجع" بيبرس" إقامة كبار الدولة ليكونوا قريبين من القلعة مقر الحكم ، فبني لهم دورا كثيرة ، وأسواقا لتجارة الجمال ، وسوق اللجم القريب من السروجية والسيوفية ، وسوق السلاح . (الطرابيلى : ص ١٣٦)

ومن أبرز المنشآت الدينية التي شيدت في ميدان الرميلة جامع السلطان "حسن ابن الناصر ابن قلاوون" ، وهو يعد من أفخم مساجد مصر في فترة حكم المماليك ، بالإضافة إلى مسجد المحمودي أحد سلاطين العثمانيين ، ومسجد الرفاعي في عصر أسرة محمد على ، ومع قداسة هذه المنشآت فقد تعرضت حرمتها للانتهاكات بسبب الصراعات العسكرية في العصر المملوكي .

مظاهر البذخ:

وحينما نسترجع وصف الميدان في العصر المملوكي نجده كان مجالا للحفلات الباذخة في مختلف المناسبات والأعياد ، وكان يتوسط الميدان كشك مكشوف يرتكز على أعمدة مزينة بالنباتات الخضراء التي تتدلى منها أقفاص العصافير، وتمتد فيه أشجار الفواكه .(المقريزي : ص ١١) وهو ما يضفي على الميدان مظاهر رفاهية الحكام وبذخهم .

أما عن اسم الرميلة فقد اكتسب هذا الاسم من أعمال الفروسية التي كان يشجع عليها الظاهر بيبرس ، إذ اتخذ الميدان لاستعراض الرمي بالسهام ، وما برح أولاده من بعده يمارسون هذه الهواية ويشجعون الأمراء والمماليك السلطانية والناس على الرمي والرهان ، إلى حد أن تزاحم الناس.

ويصف "المقريزي" ما كان في هذه المناسبة من بذخ مفرط ، والمبالغة في استعراض جنود السلطان ، ويصف مباراة الأمراء واستعراضهم ، أما عن مظاهر البذخ فيصفها بعد انتهاء الرمي ، فكان السعاة يمرون على الأمراء بأواني الذهب والفضة والبلور، ويسقون السكر المذاب ، ويشرب الأحباء من أحواض قد ملئت من ذلك ، وكانت عدتها مائة حوض فشربوا ولهوا لمدة يومين .(المقريزي : ص ١١٣)

قد تكون هذه أحد المظاهر الخارجية للبذخ ، إلا أن القصور كان يبدو فيها من مظاهر الحفلات بين حين وآخر في مختلف المناسبات ، ومنها أنه كانت تمتد صواني الذهب الخالص مرصعة بأصناف الجواهر .

وفي فترة الحكم العباسي كانت حياة القصور تتميز بمجالس الطرب والموسيقي ومجال الشراب ، وفي نفس الوقت مجالس القصاص ومجالس الوعاظ ..

إلا أن مجالس الطرب والغناء بصفة خاصة كان يجتمع فيها من المغنين والمطربين والموسيقيين ، فضلا عن الجواري اللاتي اشتهرن بالعزف على الآلات الموسيقية.

وفى وصف " ابن خلكان" لفترة حكم الأمويين أن حكامها قد أمعنوا في حياة الترف مستغلين ثروة البلاد ، وغدت في حكمهم ميدانا للنشاط الاجتماعي ، أسرف فيه الخلفاء في بناء القصور وتاسيسها بالستور والطنافس الحريرية المزركشة بالذهب ، وحسب وصفه أنه لا يوجد شبيه لها في الشرق ولا في الغرب ، هذا فضلا عن الأسمطة الفاخرة والتي كانت تمتد في كل مناسبة والتي افاض المؤرخون في وصفها .(ميمنة : ص ١٤٣)

ولا أدل على هذا السفه تجهيز ابنة خمارويه " قطر الندى " للخليفة العباسي المعتضد (٢٨١هـ - ٨٩٤م) جهازاً لم تجهز به عروس من قبل ، ذلك الجهاز الذي تكلف مليون دينار أو ما يقرب من نصف المليون جنية مصري ،ومما اشتمل عليه ذلك الجهاز منطقة مرصعة بالجواهر وعشرة صناديق مملوءة بها، والف هون من الذهب لسحق العطور ، والف تكية بلغت تكاليف الواحدة ١٠ دنانير ، كما بنا لها على طول الطريق بين القطائع وبغداد منازل تسكن إليها في طريقها ، أعد فيها الكثير من أسباب الراحة والترف ، فلا تحس بمتاعب السفر حتى أنها لم تتعد أسوار قصر ابيها في القطائع حتى صار مضرب الأمثال في البذخ والترف ، مما افقر الدولة ، وجر عليها الخراب والدمار حتى وصلت بغداد في أول محرم سنة ٢٨ هجرية ، ومما يذكر له على النقيض من ذلك اهتمامه بالبيمارستان الذي عرف باسمه لرعاية المرضى ، وانفق عليه ستين الف دينار ، ولم يقتصر على عنايتهم بالدواء بل امدهم بالغذاء والكساء ، وشرط الا يعالج فيه جندي ولا مملوك ، وقصره على أفراد الشعب والفقراء من الناس ، والحق به حمامين أحدهم للرجال والآخر للنساء ، كما انفق على حصن الجزيرة ثمانين الف دينار ، وعلى الميدان خمسين الف دينار ، ولما قتل سنة ٢٨٣هـ- ٨٩٦م ترك خزائن مصر خاوية ، مما أدى إلى إضعاف اقتصاد مصر وزوال دولة بني طولون ، واستعادة العباسين لها . (المقريزي : ج٢ / ص ١٠٨)

الرميلة ساحة للاستعراضات والصراعات :

نعود إلى مظاهر الاستعراضات برمي السهام والقوس في ميدان الرميلة التي أخذت طابعا تقليديا في المواسم والأعياد بجانب التدريب المستمر للفرسان وإعدادهم بدنيا وعسكريا ، ومن ثم أصبح الميدان ميدانا للرمي وللرماة ، ومن هنا جاءت كلمة الرميلة ، وكان يجمع حشود الناس لمشاهدة هذه التدريبات والمسابقات ولعب الأمراء .

ومن نوادر الوصف عند "ابن إياس" أن بعض السلاطين من الشبان أمثال "زين الدين حاجي" ٧٤٧ - ٧٤٨ هـ كان يلعب مع العامة ، ويلبس الثياب ، ويتعري من ثيابه كلها ليدخل حلبات المصارعة مما أعطى طابعاً شعبيا لهذه اللعبة بين العامة . ولم يقف الحال ببعض السلاطين إلى الألعاب الرياضية ، إنما اتجهوا إلى الولع بلعبة خيال الظل، وقد شارك بعض السلاطين عامة القاهرة في هذه الألعاب ، وكان ولع السلطان الأشرف بلعبة خيال الظل أن صحب المخايلين معه في رحلته إلى بيت الله الحرام بمكة ، كما نادى السلاطين بإطلاق اللعب في القاهرة ومصر ، وتحولت إلى وسائل للتسلية في كثير من ميادين القاهرة ، وإلى استعراضات بهلوان للألعاب السحرية وخيال الظل والشعوذة .

وعلى الرغم من شغف بعض السلاطين بالعاب العامة ، فإن البعض الآخر منهم وجدها منافية للقيم والأخلاق والآداب العامة ، وكان من أوائل هؤلاء السلطان جقمق ٨٤٧ - ٨٥٧ هـ الذي أمر بمنع خيال المآتة ، كما أنكر المحتسب على العامة بعض الألعاب كنقار الديوك ونطاح الكباش بعد أن أكثر الناس من اقتنائها ، وكثر اللعب بالحمام ، وأصبح الميدان ساحة لاستعراضهم . (ابن إياس : ص ٣٢٠ - ٤٠٧).

وإذا ما انتقلنا من مظاهر الترفية ، إلى الجانب الاجتماعي نجد موقف الراعي من الراعية حين طلب "الظاهر بيبرس" حشد فقراء الناس في هذا الميدان ليحدثهم في الظروف الاقتصادية التي حلت بالبلاد ، وإيجاد

حلول لمشاكل الفقراء ، ويتجه الفقراء نحو القلعة (الرميلة) ، وينزل" بيبرس " بنفسه إلى دار العدل لينظر في أمر المغالاة في سعر القمح ، وقرر إبطال التسعيرة ، وكتب مرسوما إلى الأمراء أن يكون البيع للضعفاء والأرامل فقط دون من عداهم ، وأمر الحجاب فنزلوا تحت القلعة ، وكتبوا أسماء الفقراء الذين تجمعوا بالرميلة ، وأرسل أوامره إلى كل الجهات في القاهرة ومصر وضواحيها ، وقال كلمة مأثورة "لو عندي غلة تكفى هؤلاء لفرقتها "، وقرر لكل واحد من الفقراء كفايته لمدة ثلاثة أشهر ، وحدد حصة للأكابر ، والتجار ، وبدأ بنفسه أولا ، ثم بابنه ، ثم باقي الأمراء .

ومن أعمال "الظاهر بيبرس" تطهير القاهرة من الفساد وإبطال المنكرات وشرب المخدرات وإراقة الخمور ، وإبطال المفسدات والخواطي من البلاد المصرية والشامية وحبسهن حتى يتزوجن ، وأسقط الضرائب التي كانت مرتبة عليهن .(مبارك : ص ٨٣ - ٨٤) .

وفي نهاية العصر المملوكي شاعت بين السلاطين والأمراء مظاهر البذخ في الاحتفالات والاستقبالات ، وكان أغلب خروج السلاطين للعامة من المناورات السياسية لتدهور البلاد سياسيا واقتصاديا ، وكان هذا الخروج كدعاية مضادة للشائعات كما حدث للسلطان "قنصوه الغوري" بعد أن أشاع أعداؤه أنه قد عمى بعينيه الاثنين لإثارة القلاقل في البلاد لعزله عن الحكم ، فنزل من القلعة وشق القاهرة أمام الناس ، وانطلقت النساء بالزغاريد من الطبقان ، وأعدت له الزينة سبعة أيام ، والحقيقة أن الشائعة كانت تعكس صور الضعف السياسي والاقتصادي التي بلغت حدا ضاعت فيه حرمة أهل الدولة بين العوام . (ابن إياس ج ٤ ص ٢٣٦)

ومن الشائعات التي نالت من الحكام ، ما كانت في عهد السلطان" الظاهر جقمق" (٨٥٧هـ) أن شاع بين العامة أن السلطان سوف يموت في وقت معلوم تنبأ به أحد المشايخ المقيمين بجامع عمرو بن العاص ، فكثر

تخبط العوام في ذلك ، وازدحمت العامة على باب الشيخ لسماعه ، وكان سبب الشائعة الكيد للسلطان لكونه أهان الفقراء (علاء : ص ١٣٤) . وهذا يعكس إلى حد كبير الفجوة بين الحكام والمحكومين ، فأصبحت الشائعات وترويجها تعبيراً عن استياء الناس ، فيسقطون عليها رغباتهم الدفينة في التخلص من الحاكم .

والشيء المألوف في نهاية عصر المماليك أن كان ميدان الرميلة مسرحا للصراعات والعمليات العسكرية فيما بينهم ، وكان الصراع شرساً يتمشى مع النزعات النفسية التي تتمشى مع نشأتهم الاجتماعية والعسكرية ، وأود أن أشير قبل وصف أشكال صراعهم واقتتالهم في ميدان الرميلة أن تاريخ هؤلاء في مصر جاء مع دخول العثمانيين عام ١٥١٧ ، وكان البكوات من العثمانيين يجلبون من القوقاز وجورجيا وسيركاسيا ومنغوليا وأذربيجان مماليكا يستعينون بهم في حمايتهم وصراعاتهم ، وكان هؤلاء يجلبون عن طريق عملاء في القسطنطينية ، وبعض الأحيان لم يكن هؤلاء العملاء أو الوسطاء يجدون ما يلبي احتياجات البكوات فكانوا يستعيضون عنها بالعبيد السود من إفريقيا .

وكان تدريبهم عسكريا منعزلا بطبيعة الحال عن المجتمع العام . وبهذا أصبحوا لا يعرفون وطنا إلا معسكراتهم ولا ولاءاً إلا للبكوات من العثمانيين ، وقد وصفهم "المقريزي" بأنهم غلاظ الأكباد ، شديدي الكبرياء، لا يقيمون للمبادئ والمثل العليا أي وزن ، وخصائصهم الدس والوقيعة ، وقانونهم الذي يؤمنون به الحق للقوة . (المقريزي ج ٢ ، ص ١١١) وهو شئ طبيعي يرتبط بتكوينهم النفسي وتنشئتهم العسكرية .

ولقد كان من المناظر المألوفة في ميدان الرميلة أن تنقلب بين حين وآخر إلى ساحة حرب بين هؤلاء ، فيختفي الناس من الحارات ويغلق التجار حوانيتهم خشية سلب ما بها من أموال وتجارة ، ويمتلك الناس الخوف والفزع في بيوتهم إلى أن تنجلي الغمة وتمر العاصفة ، وخيول الفريقين

تروح وتغدو ، وتكر وتفر ، يطارد أحدهما الآخر والجثث والأشلاء تتناثر هنا وهناك ، والرماة يتحصنون بأسوار القلعة كما يتحصن أعداءهم أيضا بأسطح مسجد السلطان حسن الكامل ، وهم يتراشقون بالسهام والنبل. (شحاتة : ص ١٨٨) .

من الطبيعي أن يؤدى الصراع في ميدان الرميلة إلى حراك سكان الأحياء النافذة بهذا الميدان ، خاصة سكان باب العزب وسوق السلاح وسويقة الغزي ، وشارع سوق السلاح والشوارع الأخرى ، والشيء الطبيعي أن من كان ينزح من المكان هم كبار القوم الذين تركزت قصورهم حول القلعة بالقرب من قصر الحكم . (الطرابيلي : ص ١٢٩) ونتيجة للنزوح والهجرات أصبحت منطقة الرميلة تشكل قطاعا متخلفا ، فقد تحولت إلى تجمعات للحرفيين والمشعوذين كالحواة والقرداتية ، وكانت هذه الحرف تقوم بالترفيه لعامة تجار وسماسرة الخيل والحمير ، بالإضافة إلى بؤر تعاطي المخدرات والحشاشين والمصارعين (مبارك: ص ٢٠٠) وكان المصارعون أغلبهم من جماعات الشطار الذين يتصفون بالقوة الجسدية ويقومون بعرض المباريات فيما بينهم ، وكان المبرزون يتطلعون إلى الانضمام لأمراء المماليك. (النجار :ص ٢١٤)

ومن الطبيعي أن تزحف الفئات المتدنية لغزو المكان ، فتحولت المباني الفاخرة لتصبح عششا وحيشان واخصاص بعد أن احتل بعض السكان ما قدروا عليه من استيلاء على أرض الرميلة ، فشيدوا حول المساجد والمدارس الأبنية القذرة والمقابر فتشوهت محاسن المدينة ، وبدأ الزحف على ساحة الميدان ، فضيقوه كما ضيقوا سوق السلاح . (المقريزي: ص١١)

ثورة الشعب :

كان التاريخ الاجتماعي لميدان الرميلة يحفل بالمتغيرات الاجتماعية والسياسية طالما أن رأس الدولة يحكم من القلعة وساحته ميدان الرميلة ،

فكان هناك تجمع للانتفاضات والثورات . وتبدو هذه النقطة في الصراع بين خورشيد والى مصر ، الذي يقيم في القلعة ، ويصدر أوامره بفرض الضرائب والإتاوات بالإلزام على الناس بقوة عساكره .

ولكي يصل إلى الضرائب والإتاوات حشد لهم جنود الولاة من الأتراك الذين تجاوزوا في إساءاتهم لسكان مصر القديمة على وجه الخصوص ، ونهبوا المساكن وقتلوا الآمنين من السكان ، ويصف "الجبرتي" جنود الولاة بأنهم من أسوأ من استعان بهم "خورشيد باشا " كما يصف ما أحدثوه في بيوت القاهرة ، وهذا قوله :

" ووصلوا بيوت الناس بمصر وبولاق وأخرجوا أهلها وسكنوها ، وإذا سكنوا دارا خربوها وكسروا أخشابها ، وأحرقوها بوقودهم ، فإذا صارت خرابا تركوها وطلبوا غيرها ، هذا وأنهم من حين قدومهم إلى مصر حتى عم الخراب سائر النواحي ، خصوصا بيوت الأمراء والأعيان وباقي دور بركة الفيل وما حولها من بيوت الأكابر .(الجبرتي : ج ٣/ ص ٢٠٠).

ومن المسلم به أن يكون لكل فعل رد فعل مهما كانت قوى الظلم والطغيان على الشعوب ، ومع تهوين "خورشيد باشا" من توقعات رد فعل الشعب في ظل آلات القوة التي يمتلكها ، بالرغم من تعدد الشكاوي من جنود الولاة ، إلا أنه كان يغض عن سيئاتهم واحتفظ بهم إلى غرض آخر هو محاربة "محمد على"، فتظاهر سكان الرميلة والصليبة بالشوارع والطرق النافذة إلى الميدان وباب القرافة والحصرية (درب الحصر) ، وحاصروا القلعة ومنعوا الصعود إليها ، والنزول منها ، فجمع خورشيد عساكره ، وقام الثوار بإعداد أسلحتهم وتسلقوا مسجد السلطان حسن وبدأ الفريقان في التراشق بالنيران .

ولما كان بعض جنود الولاة قد تأخرت رواتبهم من "خورشيد باشا" فقد فقدوا صوابهم ، فأصبحوا شركاء المطالبين فانضموا إلى الثوار ومعهم أهل العزب من الموالين إلى محمد على، وبالمناسبة كان لأهل العزب

باب يدخل في حرم سور القلعة .

المهم أن حركة الثوار أخذت طابعا عسكريا برفع المدافع إلى جبل المقطم لضرب تحصينات خورشيد باشا ضربا مباشرا ، ورتبوا عدة جمال لنقل المعدات والاحتياجات فكان عونهم العامة من الطبقات الدنيا من الفعلة والعربجية والساقيين والقهوجية وبائعي الخبز والكعك ، وهذا يعني أن الثورة تشكلت من كل طبقات المجتمع بمن فيهم كبار التجار ، كما آزرهم مشايخ الأزهر .

لقد شعر "خورشيد" بخطورة الثورة فحاول الاستنجاد "بعلي بك السلحدار" الذي أرسل له قافلة من ستين جملا محملة بالسلاح ومعهم عساكرهم ، فأوقعهم أهل الرميلة في كمين واستولوا عليهم.

قادة الرميلة :

لقد كان من أبرز قادة معركة الرميلة حجاج الخضري كبير تجارها ، وهو شيخ طائفة الخضرية في ذلك العصر ، وذكر " الجبرتي" أنه دعم الثورة بعرضه الغلة ، وبعد أن انتصرت الثورة شنق ظلماً (الرافعي : ص ٣٤٧) ، والملاحظ أن اسمه أطلق على شارع الصليبة ، فأصبح شارع الخضيري يمتد من جامع ابن طولون إلى ميدان الرميلة .

الواقع أن ثورة الرميلة كان من أهم نتائجها عزل "خورشيد باشا" وتولى محمد علي ولاية مصر بإرادة شعبية في يوم الاثنين ٥ أغسطس سنة ١٨٠٥ م بعد آخر والى عثماني ، هذا يعنى أن الثورة حققت هدفها في تغيير نظام الحكم بإرادة شعبية ، ولكن من هو "محمد على"؟

ولد "محمد على" في مقدونيا ، عام ١١٨٢هـ ١٧٦٩م ، وكان شديد الاغتباط بهذا التاريخ لأنه ولد في نفس السنة التي ولد فيها نابليون ، وكان نابليون من مواليد إيطاليا ، ثم التحق بالجيش الفرنسي ، وحقق فيه بطولات وضعته إمبراطورا عليها ، وهذا المسار يتطابق إلى حد كبير

مـع "محمـد علـى" الـذي جـاء ضـمن الحملـة العثمانيـة سـنة ١٨٠١ لإخـراج الفرنسيين من مصر ، وهو ضابط ألباني برتبـة يوزباشـي احـترف في بدايـة حياتـه تجارة الـدخان ، ثـم انخـرط في سـلك الجنـديـة ، واشـترك في محاربـة الفرنسـيين في مصـر ، عـايش محمـد علـي صـراع القـوي السياسـيـة ، لأن العثمانيين يريدونها ولاية لأنفسهم بحـق الفـتح ، والمماليـك يتشبثون بهـا استمرارا لماضيهم القـديم في حكـم الـبلاد والسـيادة عليهـا ، ولقـد أسـهموا بنصيب وافر في إخـراج الفرنسـيين ، ويـودون أن يحلوا محـل الفرنسـيين في البقـاء في مصـر ، واسـتطاع أن يكـون فكـرا سياسـيا تآمريـا ضـد الـولاة العثمانيين وزعماء المالك ، واستمال الشعب إليه ، ولمناصرته على الـتخلص من الفساد والطغيان ، ومن مظاهر مناصرته أن اجتمعت طبقـات المجتمـع وساروا في شوارع القـاهرة إلى" منـزل محمـد علـي" هيئـة مظـاهرة وطنيـة منـادين بسقوط العثمـانلي ومعلـنين رغبـتهم في تـولي" محمـد علـي "، ثـم تقـدم العلمـاء وعلـى رأسـهم "السـيد عمـر مكـرم" و"الشـيخ الشـرقاوي" في ١٣ مـايو سـنة ١٩٠٥ ، وانتخبـوه واليـا علـى الـبلاد بشـروط اشـترطوها أن يحكـم بالعـدل وأن يلتزم بالحق ، وألا يبرم أمرا بغير مشورتهم .

لقـد كانـت ثـورة الشـعب ضـد خورشـيد باشـا هـي رفـض الظلـم والطغيان للحـاكم الفـرد ، وبمعنـى آخـر هـدم مرحلـي للشـرعيـة الظالمـة ، بحيث ما كان يسعى إليه الثائرون هو إعلاء العدالة ، وهكذا كانت الثورة رفضا شعبيا لسلطان الإرادة المطلقة .

ولكـن "محمـد علـى" حينمـا شـرع في حكـم الـبلاد نـزع إلى الحكـم الأوتوقراطي والاستبـدادي ، وتخلص من معارضيه وكان أولهـم مـن دعـاة العدل والمشورة "عمر مكـرم" فنفـاه إلى دميـاط ، وانتـزع الأوقـاف مـن أيـدي العلماء وتخلص من خصومه المماليـك في مذبحـة القلعـة في أول مـارس سـنة ١٨١١م . (شـحاتة : ص ٣٧٣) كمـا تخلـص مـن زعـيم ثـورة الرميلـة حجـاج الخضيري ، والشئ الجديـر بالذكـر هنا موقف محمد على من الجبرتي ، لقد

كان للجبرتي موقفاً نقدياً في سياسة محمد على ، فوصفها بأنها سياسة ملتوية ، وأن مظهرها غير مخبرها سواء في الميدان السياسي أو الاقتصادي ، وحينما علم " محمد على " بما سجله عليه "الجبرتي" من انتقادات ردها إليه بالانتقام من ابنه فامر بقتله ، وهو ما جعله في حزن عليه إلى أن مات ودفن بمقابر العباسية . (العدوى : ص ٨٨)

وهناك رأى آخر أكده "الرافعى" وهو أن الذي قتل هو "الجبرتي" نفسه في ٢٧ من رمضان ١٢٣٧ هـ ، وأيا كان الاختلاف على مقتله فالمهم أنه تعرض للانتقام .

لقد كانت إرادة الحاكم وأهوائه هي المعيار الوحيد لصحة سياسته في الحكم ، فإذا تعارضت مصالحه مع مصالح الشعب فليهدم مبادئ العدل لتعلو إرادة الحاكم ، والواقع أن فلسفة حكمه إزاء القاهرة نجد صورتها عند الجبرتي الذي شهد هدم سرايا القلعة وما اشتملت عليه من المجالس التي كانت بها الدواوين ، كما شرع في بنائها على وضع جديد ولم تتوقف عمليات الهدم في عهده فشملت مساطب الدكاكين، لتوسيع الطرق ، للعربات والملاعيب وغيرها . ومن ثم اتلف عساكره الكثير من الأبنية ونودي بعدها بزينة الحوانيت والطرق بمناسبة مرور زفة ابنته. (الجبرتي : ج ٣ ص ٤٤٥) . وكان هذا الموكب يضم ٩١ عربة لأرباب الحرف يعرضون فوقها نشاطهم وصناعتهم غير أربعة عربات للعروس، ولكن ضيق الشوارع كان عائقاً لمرور هذه العربات ، فقامت الشرطة بإزالة المصاطب وتوسيع الشوارع الضيقة.

الواقع أن "محمد على" ورث إرثا من تخلف المدينة فيما كانت عليه من تلال وبرك ومستنقعات ، وأزقة ملتوية ، تتراكم فيها القاذورات ومباني آلية للسقوط، فكان لابد من إعادة تخطيط المدينة ، وصيانة مبانيها سواء ما كان على حساب اصحابها أو على حساب الدولة وفي هذه الحالة تكون من حقوق الدولة ، ولكي يحقق" محمد علي" إعادة تخطيط

المدينة بدأ بإزالة الكيمانات (تلال الأتربة) ، وتغييرها بالمتنزهات والحدائق (الشيشتاوي: ص١١،١٢).

ففي عام ١٨٢٩ أمر بإزالة التلال المتلاصقة للنيل شمال قصر العيني ، التي كانت تعرف باسم " تلال العقارب " وكان خطورتها من حجم مساحتها التي قدرت بحوالي تسعة أفدنة وهو الموقع الذي أنشئ فيه مستشفى القصر العيني ، كما أزيلت التلال الواقعة بين الناصرية ومنطقة جاردن سيتي الحالية ، التي كانت تقدر بحوالي ٣٨ فداناً تحولت إلى متنزهات وقصور ، كما أزيلت تلال قنطرة الليمون في باب الحديد لتفتح الطريق إلى شبرا .

وتشير الحقائق أن التخطيط العمراني للمدينة لم يتركه " محمد علي " دون جهاز متخصص ، فاصدر عام ١٨٤٣ أمراً بإنشاء مجلس للتخطيط العمراني وتجميل المدينة ، وكان ذلك بداية إدخال نظام البلديات إلى مصر (الطرابيلى : ص ٤٣) .

أعود إلى ميدان الرميلة وهو الذي وصفه "مبارك" في خططه و"المقريزي" و"الجبرتي"، وكلهم أجمعوا على أن أهم المظاهر العمرانية فيه هو "مسجد السلطان حسن" وأنه من أبدع المنشآت الدينية عند المماليك، وقد وجدت من المفيد زيارته ربما استرجع منه دلالة تاريخية وصورة ذهنية لأحداث الرميلة ، وللحقيقة فقد انبهرت بعظمة الفن الهندسي الإسلامي من علو جدرانه المكسوة بالزخارف والأحجار الفاخرة متعددة الألوان ، وعلى باب القبلة بابان يوصلان إلى مقبرة السلطان ، وبجانبها حامل كبير للمصحف ، ومن سقف المسجد تتدلى مصابيح زجاجية (مشكاوات) مموهة بالمينا ، وهو ما يدل على مهارة الصانع المصري في هذا الفن ، ومما يلفت النظر تلك الأبواب الضخمة المخصصة للمذاهب الأربعة وهى الشافعي والمالكي والحنفي والحنبلي ، وقد أنشئت للصلاة والعلم بالإضافة إلى الدعوة للسلطان ، وتتكون المدرسة من أربعة إيوانات تحيط

بالصحن يتوسطه فسقية ، وقد قرر السلطان حسن تعيين مدرسين ومراقبين وعين لهم مرتبات ، كما قرر لكل مذهب من المذاهب الأربعة شيخا ومائة طالب ، وعين طبيبين أحدهما باطني والآخر كحال يحضران بالمسجد لمداواة من يحتاج إلى علاج من الموظفين والطلاب ، ورتب ثالث جراحا ، وقد أوقف مرتبات الأستاذة والطلبة والموظفين وقيمة ما يصرف لهم من الأكل كل ليلة جمعة ، وما يصرف لهم في الأعياد .

لقد كان الهدف من هذه المدرسة هو نشر المذهب المخالف لمذهب الدولة الرسمي متخذين من المدرسة ستارا لنشر المذهب السني والقضاء على المذهب الشيعي، ولقد انتشرت هذه المدارس في فترة العهد الأيوبي حتى وصلت إلى أربعة وعشرين مدرسة واكتمل التخطيط المعماري لها حتى أصبحت تفي بكل مطالب المدرسة من صلاة وتدريب وإيجاد أماكن للمدرسين ، كما هو الحال في جامع ابن قلاوون سنة ٧٥٧ هجرية ، ١٣٥٦ م (سعاد : ص١٤٤) ، واستمر يعمل به لحين وفاته في جمادى الأول سنة ٧٦٢ هجرية ١٣٦١م.

لقد خرجت من زيارة هذا المسجد بفكرتين : الأولى الفن المعماري المتقدم في التصميم الهندسي الذي تقوم فيه الأسقف على غير عمد ، وإبداع الصناع والحرفيين المصريين فيه . والفكرة الثانية هي تعميق الفكر الديني للمذاهب الأربعة في مكان واحد ، وهو ما كان يقرب هذا الفكر بين الفقهاء ويقرب وجهات النظر فيما بينهم في الإفتاء .

أما بالنسبة للمسجد الذي يقابله مباشرة فهو مسجد "الرفاعى" ، ولقد دخلت هذا المسجد وهو مرتفع بمدرجات فوق الأرض ، وفي الواجهة مشهد لمقبرة للشيخ على "أبو شباك الرفاعي" ، و يربط تاريخه بأبيه الذي وفد إلى مصر سنة ٦٨٣هـ ، وتزوج حفيدة الملك الأفضل أحد أمراء المماليك في عهد السلطان المنصور سيف الدين قلاوون ، اتخذ طريقة جدة الصوفية ، وأخذ يدعو لها ، وجعل من سكن أسرته وعائلته في سوق السلاح مقرا

للطرق الرفاعية (وهو المكان القريب من المسجد)

أما مسجد الرفاعي الحالي فكان يشغل جزءا من أرضية مسجد قديم يرجع إلى العصر الفاطمي عرف باسم مسجد الذخيرة تحت قلعة الجبل بأول الرملية تجاه مسجد السلطان "حسن بن قلاوون "، أنشاه" ذخيرة الملك جعفر" متولي الشرطة ومتولي الحسبة سنة ست عشرة وخمسمائة ، ولم يعمل فيه منذ إنشائه إلا صانع مكره أو فاعل مقيد .

وكان يرد لزيارة سيدي" علي أبي الشباك "خلق كثير من مصر وغيرها ، وخصوصا المصابين بالأمراض العصبية المعروفة عند العامة (بالرياح الطبيعية) ، وفي سنة ست وثمانين وألف هجرية اشترت السيدة "خوشيار" والدة " الخديوي إسماعيل" أرض مسجد الذخيرة والأماكن الواقعة بجوار زاوية الرفاعي من الجهات الأربعة ، فشملت حوش بردق المعروف بحوش الحدادين ، وحمام بجواره ، ولكن لم يعرف الجامع باسم "خوشيار "، بل عرف باسم الرفاعي ، وأمرت أن يعمل ضريح لسيدي علي أبي شباك الرفاعي ، وسيدي يحيي الأنصاري، ومدافن لها ولمن يموت من ذريتها . (سعاد : ص ٣٠٨)

ويذكر الأثريون أن هذا المسجد يعد من أعظم المساجد في القرن العشرين ، وتوفيت منشئته السيدة "خوشيار هانم" والدة الخديوي إسماعيل قبل الانتهاء منه ، واكتمل في عهد الخديوي" عباس الثاني "، وتم افتتاحه يوم الجمعة في غرة محرم سنة ١٣٣٠ هـ - ١٩١٢ م .

لقد أراد مصمم هذا المسجد أن يحاكى مدرسة" السلطان حسن" في فخامته وارتفاعه لذلك تبدو فيه المداخل العالية ، والأعمدة الحجرية والرخامية بتيجانها العربية ، وسقوف المسجد فيها زخارف مذهبة ، ويتدلى من سقف المنبر ثريات نحاسية عربية ومشكاوات زجاجية مدهونة بالمينا ، وفي داخل المسجد شاهدت غرفتين للمقابر في ناحيتين منفصلتين الأولي "لخوشيار" هانم والدة الخديوي إسماعيل ، ومقبرته بجانبها هو

وزوجاته الثلاث اثنتان تركيتان والثالثه من أصل فرنسى ، والناحية الثانية للسلطان حسين كامل ، والملك فؤاد ، والملك فاروق ، وخارج صفوفهم مقبرة للإمبراطور" محمد رضا بهلوي" شاه إيران الذي تزوج من الأميرة فوزية وطلقها ، وهى شقيقة الملك فاروق وابنة الملك فؤاد .

إنهم جميعا في مكان واحد ، على ارتفاع الرميلة تطل عليهم مقبرة محمد علي وابنه إبراهيم باشا في قمة القلعة التي تطل مباشرة على مسجد الرفاعى كما تطل الناحية الخلفية على شارع محمد علي ، لقد ارتبط هذا المكان (ميدان صلاح الدين حالياً) بالحركات الاجتماعية الشعبية ، وظلت هذه الحركات تاريخا . خاصة أنها جاءت بمحمد على والياً على مصر.

ولم يكن أمامي إلا أن استدعى صورة ذهنية لبعض الملامح من تاريخهم ، فالتاريخ هو أصدق تصوير لماضي الإنسان ، لقد بدأت بمقبرة إسماعيل باشا خديوي مصر ، استرجاع لمحات من تاريخ حكمه لمصر في الفترة من ١٨٦٣ — ١٨٧٩م بعد خلافته لعمه سعيد (١٨٦٣) ،حاول تحديث مصر بإنشاء المصانع، وأعمال الري ، والمباني العامة ، وشهد عهده بداية لكثير من المؤسسات الثقافية ، بما في ذلك دار الأوبرا ودار الكتب والجمعية الجغرافية والمتحف المصري " الانتيكخانه " ، والعديد من المدارس الابتدائية، والقانونية، والعليا مثل دار العلوم ، واستكملت قناة السويس في عهده ، وشملت إصلاحاته تنظيم المحاكم الوطنية والمختلطة والشرعية ، وإقامة الخدمة البريدية ومد خطوط حديدية وتلغرافية . (شميت : ص ٧٤) ، وانشأ كوبري قصر النيل ليصل القاهرة بالجيزة على نمط كباري باريس ، وجعل في مداخله أربعة سباع من البرونز ، كل اثنين منهما على كل مدخل من مداخل الكوبري، بالإضافة إلى كوبري آخر يصل إلى الروضة ، ومن آثاره في التغيير الطبوغرافى ردم البرك ، ومنها بركة عابدين التي كان يحيط بها مجموعة من الخرائب ، وردمت ليبنى

عليها قصر عابدين ليكون مقراً للحكم ، وشق شوارع عابدين ، وعبد العزيز ، وإبراهيم باشا ، والخديوي إسماعيل . ثم ردم بركة الأزبكية ، كما غير مجرى نهر النيل عند فرع الجيزة لينشئ حديقة الأورمان اسوة بغابة بولونيا خارج باريس . (كريم : ص٦٤)

وبعد أن غادرت مقبرة والدته مؤسسة المسجد ، ومقابر زوجاته الثلاث بجانبه انتقلت إلى غرفة المقابر الثانية والتي تبدأ بالسلطان حسين كامل - ابن إسماعيل باشا - والذي كان من أهم أعماله بناء الخط الحديدي بين وسط القاهرة وحلوان، وأنشأ أول مدرسة حكومية لتعليم البنات في السيوفية ، وكان له اهتمامات بالزراعة ، فنظم أول معرض زراعي للزهور في حدائق الأزبكية عام ١٨٩٦م ، وكانت ميوله السياسية متعاطفة مع الفلاحين المصريين ، لكن كان معادياً للحزب الوطني ، ومن مفارقات القدر أن هذه العداوة تحولت إلى تقارب في القبور مع زعماء الحزب الوطني "مصطفى كامل" و "محمد فريد" حيث شيد مدفنهما في أرض الرميلة على بعد خطوات من مسجد الرفاعي .

بعد ذلك ناتي إلى مقبرة" احمد فؤاد الأول" الذي تولى الحكم بعد والده إسماعيل ، وهو اصغر أبنائه ، وكان الرئيس الشرفي للجامعة المصرية (١٩٠٨-١٩١٣) ، واختاره البريطانيون للسلطة المصرية عام ١٩١٧ خلفاً لحسين كامل ، كانت له مواقف وطنية في تشجيع ثورة ١٩١٩ ، وكان يميل إلى الاستبداد في نظام الحكم فأراد أن يوظف الدستور لتوسيع سلطاته على حساب سلطة البرلمان ، وتحت ضغط الشعب تراجع عن دستوره ، ويصفه " شميت" بانه كان أتوقراطياً جشعاً لم يحب شعبه ولا الزعماء الوطنيين في مصر ، وفضل الحكومة المستبدة ، وتوفي عام ١٩٣٦م .

أما آخر مقبرة من سلالة إسماعيل باشا فهي مقبرة الملك فاروق آخر ملوك مصر ، كان زواجه من صافيناز ذو الفقار الذي أعاد تسميتها بفريدة . قد منح له قبولاً شعبياً ، نافس الوفد الذي سيطر على الحكومة

في ديسمبر ١٩٣٧ عندما اقالها لتاييدها مظاهرة شعبية قرب قصر عابدين، وفى نفس الوقت عارض القتال مع الإنجليز ضد المانيا لرغبته في التخلص من الاستعمار البريطاني ، وغامر بالجيش المصري في حرب فلسطين دون تجهيز أو قيادة ، ومن ثم مُني الجيش بالهزيمة ، وفى ذروة الحرب انفصل فاروق عن الملكة "فريدة" ، وهو ما اثار استياء الشعب وقوبلت صورته في إحدى دور السينما بالقاهرة بأصوات الاستهجان العلنية لأول مرة .

كان تعيينه لزوج شقيقته" إسماعيل شيرين "وزيراً للحربية هو القشة التي قصمت ظهر البعير ، فأثارت ضباط الجيش ، وفى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ سيطر الضباط على السلطة ، وقرروا عزل فاروق ، وحاصروا قصر عابدين بالدبابات ، وكان هو آخر من تولى حكم مصر من الأسرة العلوية، حد قول "شميت" عندما عاد من دراسته بانجلترا ليصبح ملكاً على لم يكن له أعداء ، وعندما ترك مصر لم يكن له أصدقاء . (شميت: ص ٥٢٣ — ٥٢٥) .

وللحقيقة كنت منبهراً بصناعة شواهد المدافن الرخامية ، وما فيها من إبداع فني يدعو للرهبة ... أقصد بذلك رهبة الموت .

ومع كل هذه الاعتبارات لانستطيع إن نغفل الدور الحضاري للأسرة العلوية في تغير طبوغرافية أحياء بأكملها فى المدينة العتيقة ، ووضعها على خريطة التحديث التي مازالت بآثارها باقية في الميادين والشوارع والقصور والمنشات.

الفصل السابع

ميـــدان بركـــة الفيـــل

كانت بركة الفيل في موقعها تكاد تكون على حافة ميدان الرميلة في منخفض ، وموقعها الحالي من شمال القاهرة بسكة الحبانية ، ومن الغرب شوارع ودرب الجماميز والعبودية ، وشارع الخليج المصري ، ومن الجنوب شارع مارسينا ، ونظرا لاتساع أراضيها عرفت بميدان بركة الفيل .

لم تكن بركة الفيل عميقة بل كانت المياه بها راكدة ، يدخلها ماء النيل من الخليج المصري ، وبعد هبوط الماء كانت تزرع بالفرط (البرسيم) لعلف الأبْقار، ومن ثم تحول اسم هذه الأراضي إلى حدر البقر، أما بالنسبة لإطلاق اسم الفيل عليها فهو أن "الأمير خمارويه بن احمد بن طولون" كان مشغوفا باقتناء الحيوانات ، وانشأ لكل نوع منها دارا خاصة ، وكانت دار الفيلة واقعة على حافة البركة من الجهة القبلية من شارع نور الظلام ، وكان الناس يقصدون البركة للنزهة ، ومشاهدة الفيلة فاشتهرت بينهم باسم بركة الفيلة .

وحين تجف المياه ، تتحول إلى أرض زراعية ، إلى أن انحسرت عنها المياه نهائيا ، وقد شيد عليها فيما بعد قصر عباس حلمي الأول — والتي عرفت بسراي الحلمية ـ وحديقتها الكبيرة ، وفى عام ١٩٠٢ هدم القصر، . وقسمت أراضيه أيضا ، وبيعت جميع القطع ، وأقيمت عليها العمارات الحديثة ، ومن هنا عرف المكان من بين أحياء القاهرة "بالحلمية الجديدة" ، ومنذ أواسط القرن الثامن عشر ، بدأ البكوات يتمركزون حول كل من بركة الفيل ، وبركة الأزبكية ، وهما أوسع برك القاهرة وأكثرها امتلاء بالماء ، وهما مصدر انتعاشها في معظم أوقات السنة ، إذ بلغت نسبة الإشغالات العمرانية للأمراء والتجار إلى ٥٣٪ فيما بين ١٧٥٥ -١٧٩٨ م ، وارتفعت إلى ٥٨٪ عام ١٧٩٨م ، وعند نهاية القرن كان كل واحد من البكوات الذين كانت لهم حرية واسعة في الاختيار بين عدة بيوت يمتلك على الأقل دارا من ضواحي بركة الفيل ، وآخر عادة في حي قوصون ،

وآخر في الأزبكية ، وعلى سبيل المثال كان لعلى بك الكبير ثلاثة بيوت ، و"لمحمد بك أبو الذهب" اثنان ، ولإسماعيل بك اثنان ، أما مراد بك فكان له ستة بيوت ، وكان" لمحمد بك الألفي" نفس العدد ، و"لمرزوق بك" أربعة ، و"لإبراهيم بك الكبير" خمسة . (زكى :بحوث الجبرتي ص٤٨٠)

وكان من عادة الأمراء شراء البيوت بالرضا أو الغصب ، كما حدث من الأمير يوسف بك الكبير زوج أخت "محمد بك أبو الذهب" الذي شرع في بناء داره على بركة الفيل داخل درب الحمام ، تجاه جامع الماس ، وأراد أن يجعل أمام باب داره رحبة متسعة ، فعارضة جامع خير بك ، فعزم على هدمه ونقله إلى مكان آخر ، ولكنة واجه اعتراضا من علماء الدين ، فتركه على حاله ، واستمر يعمر هذا القصر نحو خمس سنوات ، ثم أخذ بيت الداودية التي بجواره وهدمه وادخله في قصره ، وكان من عادة هذا الأمير الإنفاق على القصور ، فيهدمها ويبنيها مرة أخرى (الجبرتى :٢٣) ، ومن ثم نجد أن آثار هذه البيوت قد اندثرت عن أخرى ، وكان من عادة الأمراء والمماليك شراء بيوت جيرانهم أو الاستيلاء عليها غصبا للتوسع فيها ، وكان هذا التوسع يقتضي في كثير الأحيان ضم أجزاء من البركة وردمها لهذه التوسعة . (المقريزي :ج٣ / ص٦٧)

<u>ليالي بركة الفيل :</u>

لقد كانت الحياة المرفهة حول البركة هي انعكاس لحياة الخلفاء والأمراء ، وحسب وصف "المقريزي" كان السلطان يركب فيها بالليل ويسرج أصحاب المناظر أنوار القناديل لتشكل بهجة للناظرين، ويصف أيضا زفاف "أنوك" ابن السلطان بابنة الأمير بكتمر الساقي سنة٧٣٢ ، بقصره الذي بناه له الملك الناصر "محمد بن قلاوون" في حدر البقر من بركة الفيل ، وقد خرج أثاث بيتها من هذا القصر ، وكان عدد الجمالين ثماني مائة جمال ، وآل هذا القصر إلى ابن ابنته من سلالة الورثة "أحمد بن

محمد بن قرطاوى" ، فأخذ رخام وشبابيك وكثيرا من سقوفه وباعها . (المقريزي : ج٣ ، ص٦٣ ،٦٩)

كما يصف "الجبرتي" زفاف ابنة "إبراهيم الكبير" على بركة الفيل، وإعداد مصاطب من الأخشاب المركبة على وجه الماء لمشاهدة الحفل الذي شارك فيه أرباب الملاهي واللاعبين وبهلوان الحبل ، بجانب أشكال الزينة المعلقة على بيوت الأمراء والأعيان المحيطة بالبركة .(احمد فاكى : بحوث الجبرتي ص٣٨٥)

حاولت أن اجوب هذه الأماكن بحثا عن آثار فلم اجد منها إلا المساجد ، وما تبقى من أثرين أساسيين ، وهما مزاران سياحيان : "مدرسة البنات" التي كانت دار الأمير طاز ، والتكية المولوية للطرق الصوفية"، ولنبدأ بالأثر تأول وهو منسوب للأمير طاز .

دار الأمير طاز:

هو الأمير" سيف الدين طاز "أمير مجلس ساقي اشتهر اسمه في أيام الملك "الصالح إسماعيل"، ويقول المقريزي إن هذه الدار بجوار المدرسة بندق دار (مكان البنادق) تجاه حمام الفارقانى (هذا المكان تلاشى على يمين مسلك الصليبة إلى حدر البقر وباب زويلة) أنشأ هذه الدار في سنة ٧٥٣ ، وكان موضعها عدة مساكن هدمها برضى أربابها وبغير رضاهم ، وتولى الأمير منجك السلحدار عمارتها ، فجاءت قصرا مشيدا (المقريزى ص:٧٢) ، ويتناولها مبارك بقوله : ثم تحولت إلى مدرسة للبنات ، وفى زمن "محمد على" تحولت إلى مخازن للمهمات الحربية ، واستمرت كذلك إلى زمن "الخديوي إسماعيل" الذي رغب في إنشاء مدرسة لتربية البنات وتعليمهم ، ويقول "مبارك" في وصف المكان: وكنت إذ ذاك ناظرا على ديوان الأوقاف والمدارس فظللت أبحث عن مكان يليق بهذا الغرض، فلم أجد أحسن من هذه الدار ، وقد أخليت من المهمات وتحولت إلى مسكن للفقراء ، وكانت

وقتئذ متشعثة ومخربة اغلبها، وتمت تبعيتها لديوان الأوقاف ، وتمت على الصورة التي عليها ، وبابها بقى على صورته الأصلية ، وأصلحنا خلل البناء ، وأنشأنا القاسم للحوش ، وفتحنا الدكاكين التي كانت بواجهته ، فجاءت بحمد الله مدرسة حافلة ، ومساكن فاخرة ، ودخلها نحو مائتي بنت يتعلمن فيها الكتابة وغيرها من الأشغال الدقيقة مثل الخياطة والتطريز ونحو ذلك ، ويعمل بها امتحان في كل سنة. (مبارك :ج ٢ ص ١٦٣) ، وبالنسبه للأثر التالى وأعنى به تكيته المولوليه.

وهى من وقف يوسف سنان بشارع السيوفية كانت أول أمرها الرباط الذي أنشاه الأمير "شمس الدين سنقر السعدى" سنة ٧١٥ بمدرسته المعروفة بالسعيدية .

ويقول "على مبارك" عن هذه التكية في عصره أنها عامرة بالدراويش ، ولهم بها مساكن ، وفيها جنينة ، ويعمل بها حضرة كل ليلة جمعة ، وقد اجرى عمارتها المرحوم سعيد باشا ، وتاتى اهمية هذه التكية في نقطتين ، الأولى : عقائدية ، والثانية : فولكلورية .

اما بالنسبة للنقطة الأولى فيعتقد أتباع هذه الطريقة إن مركز الكون من الناحية الرمزية تقع بالتحديد داخل التكية المولوية في مجمع "الأمير سنجق السعدي "في حدر البقر بأرض بركة الفيل"، ويضم هذا المكان واحدة من قاعات السمع خانه المتبقية في العالم ، وهى قاعة واسعة يتوسطها صحن لأداء الشعائر الصوفية ، ولها أهمية روحانية ، وطابع معماري وتاريخي فريد .

وأثناء الخلافة العثمانية ما بين القرنين السابع عشر والثامن عشر انتشرت الطريقة المولولية من وسط الأناضول إلى منطقة البلقان وسوريا ومصر ، وكان أتباعها يعتزلون الحياة تقربا إلى الله ، ويعيشون في التكايا التي كانت تستخدم أيضا كاستراحات للمسافرين .

ويذهب "حجاجي إبراهيم أستاذ الآثار الاسلاميه " إلى أن هذه التكية

استخدمها سليم الأول في إخفاء شخصيته كاحد المولوية، ومكث فيها حوالي شهر للإعداد للغزو العسكري لمصر ، وبعد انتصاره على طومانباي أقام في دار بالقرب في نفس المكان .

أما بالنسبة للنقطة الثانية فالطريقة المولوية ترتبط بالرقص الصوفي ، وهو من الطقوس الروحانية لتطهر الروح ، وتحمل الآم الجوع والعطش ، والشوق إلى الله .

وتمثل الحركات الراقصة للمولوية الرقص الدوار ، وملابسها لها رموز ودلالات في الزهد والتجرد ، فالعباءة ترمز عندهم إلى الجسد الذي يمنع الروح من التحليق ورؤية نور الله ، وعندما يخلع الدراويش عباءته تظهر من تحتها الجلابية البيضاء ، أما السترة والتنورة فهما يعبران عن النقاء ، وتحرر الروح من الجسد من خلال الحركة والموسيقى ، ويمثل القلنسوة التي يرتديها الصوفي شاهد القبر ، وترمز إلى صورة الذات ، وبدء الرحلة إلى الأبد ، أما دور الموسيقى فهي تعنى تطهير قلب وروح المريد ، وعندما يبدأ الدراويش في طقوسهم يدورون حول انفسهم وهم يوجهون راحة إحدى اليدين إلى أعلى ، والأخرى إلى أسفل بمعنى أن اليد اليمنى تأخذ الهبات من الخالق والأخرى تشير إلى الأرض حيث النهاية والموت .

وبالتأمل في الرقص الدواز عند الدراويش نجده يسمو بافعال روحية ، وهو ما يعنى عند الصوفية رغبة العابد في أن يبلغ حالة الاتصال الإلهي عن طريق الوجود الفكري الذي يؤدى إلى الشعور بانه قد بلغ درجة تعلو بالنفس خارج حدود الجسد ، إن دلالة الرقص عند المولوية كان يصاحبه الإيقاع المثير بالموسيقى ، فى تنظيم الراقصين الذاكرين وهم يتحركون جميعا معا ، كل ذلك يؤدى إلى حالة من الوجد الذي يشيع الشعور بالنشوة الذاتية في حب الذات الإلهية .

وبالنسبة لقاعة السمع التي يمارس فيها الدراويش أذكارهم ورقصاتهم الدوارة ، فيؤرخ لها في القرن الثامن عشر ، وأعيد ترميمها في

عـام ١٩٨٨ ، وتـرتبط هـذه القاعـة بـالرموز الهنـدسـية والـدينيـة ، فالشـكل المكعب للمبنى يعنى رمزية الكلمة ، بينما ترمز القبة للأرض ، وتعبر رسـوم الطيور المرسومة على سقف القبة الخشبية من الداخل عن تحرر الروح مـن القيـود الحسـية ، وتـزين القاعـة شـرفات علـى مسـتويين حيـث يجلـس المشاهدون لرؤية الدراويش في الصحن ، وتزين الجدران من الـداخل برسـوم النباتات وآيات قرآنية وأبيات من الشعر مكتوبة باليد .

وتوجد التكيـة المولويـة داخـل مجمـع يحتـوى علـى مدرسـة وضـريح "سـنقر السـعدي" ، والـذي شـيد عـام ١٣١٥م ونحـو ، ويعتـبر نموذجـا فريـدا لعمارة المماليك البحرية ، ويعرف هـذا الضـريح أيضـا باسـم ضـريح "حسـن صدقة "، ويجاوره ثلاث أضرحة لشيوخ المولوية تعلوها قبـة شاهقة ومنـارة ، وهو يلتصق بقصر طولون أفخم قصور المماليـك الـذي شـيد عـام ١٣٣٧ م ، والذي لم يبق منه إلا ركامه،

وكما شاهدناه في رفقة " حجاجي إبراهيم " لأهمية المكان أنه عقد مـؤتمر الموسـيقى العربيـة فيـه . وفـى سـنة ١٩٤٦ سـكن العجـزة والمسـنون بجانـب الـدراويش ، إلا أن أتبـاع هـذه الطريقـة تراجـع أهـدافهم ، وظهـرت طريقـة أبـو الغـيط الـتي تحـاكى رقصـة التنـورة في الحفـلات ومقدمـة الجنازات ، إلى أن تم طرد المولوية عام ١٩٢٥ م ، واقتصرت على إيواء المسنين والعجزة الذين تم نقلهم إلى مبنى آخر في شارع بـور سـعيد ، ليبقـى المكـان أثرا.

الفصل الثامن

ميدان بركة الأزبكية

وملامح على بركة الرطلي

هنـاك دون شـك اتفـاق بـين المـؤرخين في خططهـم علـى أن الـتغيرات الطبوغـرافية التي غيرت الشكل الفيـزيقي لبركـة الأزبكيـة ، وحولتهـا مـن منطقـة ميـاه راكـدة إلى مسـاحات مـن أرض يابسـة امتـد إليهـا العمـران ، عرفـت فيمـا بعـد بميـدان الازبكيـة ، تفاعلـت فيهـا الأحـداث الاجتماعيـة والثقافيـة ، ونبـدأ بنقطة اسم الأزبكية وهى مقترنة بأول من بـدأ بعمرانهـا وهو " أزبك بك "، الذي قام بردم مساحات واسـعة مـن هـذه البركـة، وأقـام عليها قصـوراً سـكنيـة لنفسـه ولصفوة المجتمـع ، وأرخ لهـا "المقريـزي" منـذ العصر المملوكي والعثماني ، من خلال وصفه أنها كانـت أرضاً محتكـرة موقوفـة علـى خـزائن السلاح منـذ العصـر الأيـوبي إلى أن أسسها "الأتـابكى أزبـك" ، وادخـل المـاء في بركـتهـا فـانعم عليـه السـلطان بأرضـها ، واتجهـت النـاس إلى سكناها ، وشرعوا في بنـاء القصـور الفـاخرة، وأصـبحت تتنـامى في عمرانهـا ، فصـارت منطقـة منفـردة ، ولكـي يضـفي " أوزبـك " علـى هـذه المنطقة الروح الدينية ، قام شانه شـأن أمـراء المماليـك ببنـاء جـامع تفـنن في تجميله ، وأنشـأ حولـه الربـوع والحمامـات والقيـاسـر والطـواحين والأفـران ، وغير ذلك من المنافع ، وسكن" أوزبـك " في تلـك القصـور إلى أن مـات ، وبقـى اسم الأزبكية مقترناً باسمه . (المقريزي:ج٣ ص١١١، ١١٧)

ومن أشهر بيوت القاهرة ما كان حول بركـة الأزبكية خاصة بيـت محمد بك الألفي الذي آل إلى " محمد على" وأقام بـه مـن بعـده نـابليون ثـم كليبر الذي قتل فيه ، كما كان يوجد في نفس المكان قصر عباس الأول وطوسون وقصر الدفتردار محمد بك زوج ابنة محمد على ، وكلها قصور تمتاز بسعة مساحتها وجمال عماراتها . (سمير: ص ٩٥)

لقد ظلت منطقة الأزبكية سكنى الصفوة ، ويصـف " ابـن إيـاس" مـا كانت عليـه قصـور هـذه المنطقـة مـن فخامـة إلى حـد أن كـان يخصـص

بعضها للوظائف العليا، وكان نفس القدر لقصور بركة الفيل لمن يتولى منصب الوزراء ، وفى نفس الوقت يشير إلى ما آلت إليه من تخريب في نهاية الدولة المملوكية بسبب صراعاتهم العسكرية الدموية ، وهو ما أصابها من حرق القصور والربوع والدور ، حتى المساجد لم تنج من سرقة الحصر والقناديل ، وبنظرة أخرى " للمقريزي " يصفها في العصر العثماني ، فيشير إلى ازدياد العمران فيها ويحدد الضواحي التي تميزت بالاستقلال النسبي كالأقباط في شمال البركة بالضاحية المعروفة بحارة النصارى ، بالإضافة لتواجدهم أيضا شرقها حول جامع كتخدا، وبحكم الجوار أيام الحملة العسكرية ومقر قيادة نابليون بالأزبكية، وسعوا نشاطهم بفتح المقاهي والحمامات ، وهو ما انتقده " الجبرتي" فيما هو غير مألوف بالنسبة للمجتمع .

ونظراً لوجود جامع الرويعي بالأزبكية أصبح يجذب حوله السكان مما أدى إلى اتساع العمران في شرق البركة ، وامتداده إلى منطقة العتبة الخضراء التي كانت أشد المناطق ازدحماً بالعمارة ، وما أن جاء منتصف القرن ١٣هـ / ١٨م حتى عاد إليه سكنى الأمراء ، مما كان له أثره في الحراك السكاني للأجانب ، فقاموا بفتح متاجر حولها بجانب تلك الخصوصية السكنية والنشاط التجاري الذي بدأ ببناء الفنادق للنزلاء من السائحين الأوربيين الذين يزورن القاهرة.

الحقيقة ان الدخول في أي جدال تاريخي لشواهد الأحداث في ميدان الأزبكية ، فالحاسم له شواهد " الجبرتي " الذي يصف مسرح الأحداث فيها بشكل درامي يعبر فيه عن معاناة الناس وفزعهم في ٢١ مارس سنة ١٨٠٠ ، ٢٤ شوال ١٢١٢هـ بقوله : اتسع نطاق الثورة وغامرت طبقات الشعب كافة ماعدا الضعيف من الناس الذي لا قوة له بالحرب ، وذهب المعظم إلى جهة الأزبكية ، وسكن الكثير في البيوت الخالية والبعض خلف المتاريس ، وأخذوا عدة مدافع زيادة عن الثلاثة الأخرى وجدت مدفونة في بيوت الأمراء

المماليك ، وأخذوا من جوانب العطارين من المشتقات التي يزنون بها البضائع من حديد وأحجار واستعملوها ، وصاروا يضربون بها بيت ساري عسكر نابليون بالأزبكية، واتسع نطاق الثورة .

لقد عاش " الجبرتي" شواهد هذه الأحداث ، ومن ثم يشكل وصفه صورة حية لواقعها فيتناول قدوم الجنرال "فريان" ليواجه الثورة التي وجدها وقد امتدت إلى باقي أحياء القاهرة ، وكانت المتاريس على جانب كبير من المناعة ، وبذل الأهالي ما في وسعهم بإنشاء معملاً للبارود في أربع وعشرين ساعة في بيت قائد أغا الخرنفش ، وانشئوا معملاً لإصلاح الأسلحة والمدافع ، ومعملاً آخر لصنع القنابل وصبوا المدافع ، وجمعوا له الحديد من المساجد والحوانيت، وتطوع أصحاب الحرف للعمل وأخذوا يجمعون القنابل التي تتساقط من مدافع الفرنسيين في الشوارع ، ويستعملونها في قذفهم . (الرافعي : ص ١٥١) .

أمام هذا التطور الذي ظهرت فيه روح التضامن الجماعي وتوزيع الأدوار في الثورة جاءت خطة الهجوم الفرنسية لتشمل حصار الثوار ، واشتد القتال في معركة الأزبكية وسيطروا عليها ، كما نالوا بولاق وبركة الرطلى بالحرق والتدمير .

وفى وصف " الجبرتي ": واستمر الحال على ما هو عليه من اشتعال نيران الحرب ، والكرب ، ووقوع القنابل على الدور ، والمساكن، والقلاع ، والهدم والحرق ، وصراخ النساء والصغار من البيوت من الخوف والفزع والهلع ، ومن القحط ونفاذ المآكل والمشارب ، وغلق الحوانيت والطوابين والمخابز ، ووقف حال الناس من البيع والشراء وتفليس الناس ، وعدم وجود ما ينفقونه إن وجدوا شيئاً .

واستمر ضرب المدافع والبنيات والنيران ليلاً ونهاراً حتى كان الناس لا يهنا لهم نوماً ولا راحة ، ولا جلوس لحظة من الزمان ، ومقامهم دائماً الأزقة والأسواق ، وكأنما على رؤوس الجميع الطير ، أما النساء والصبيان

فمنامهم بأسفل الحواصل والعقودات تحت طباق الأبنية على غير ذلك .

لقد كان للنطاق الجغرافي لسكنى اليهود والنصارى في الأزبكية أحد عوامل التوتر في فترة قيادة بونابرت في هذه المنطقة ، وهو ما أدى بالريبة والشك من المصريين في علاقة هؤلاء بالفرنسيين .

تجدر الإشارة هنا إلى أن هؤلاء النصارى كانوا من الوافدين من الشام خاصة السوريين الكاثوليك الذين برعوا في مجال الترجمة بجانب المغاربة ، وهو ما وضعهم موضع الشك ، كما أشار إلى الحراك السكاني للأقباط بعد انتقال البطريركية المرقسية من حارة الروم بالدرب الأحمر إلى الأزبكية، وهو ما أدى بسكنى الأقباط حولها وهو شئ طبيعي بالنزاعات العائقديه واقتربوا بها من ودور العبادة، ومن ثم أصبح لمنطقة الأزبكية خاصية دينية تجمعت فيها الأقباط من المصريين، والنصارى من الشوام، والأجانب من الأزبكية خاصة والجالية اليونانية، أما بالنسبة للمتصل بين الأزبكية والأزهر فكانت بالموسكى قنطرة شيدها "عز الدين موسك " فاقترن الشارع باسم الموسكى ، وكان هذا الشارع معبراً للثوار بين الأزبكية والأزهر .

ويظهر " الجبرتي " هذه الثورة والقيادة الوطنية من التجار وأثرياء المدينة في دعمها ، ويبرز روح الوحدة الاجتماعية في مواجهة الأخطار والأزمات ، وزاد من لهيب الثوار أن قتلوا مصطفى أغا محافظ القاهرة ، والذي كان يحكم بسلطوية القهر ضد الناس مما أدى بالفرنسيين إلى الانتقام له بهدم البيوت وإيذاء الناس ، وتجاوزوا حدودهم إلى الاعتداء على الجامع الأزهر ، وضربوا بالمدافع والبنيات على البيوت والحارات والأسواق ، ودخلوا الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول وبينهم المشاة كالوعول وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا بالأروقة وكسروا القناديل والسهارات ، وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين .. ومزقوا الكتب والمصاحف ، وعلى الأرض طرحوها وبارجلهم وبغالهم داسوها .(الجبرتي: ج ٣ ، ص ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧).

هذه الصورة التي صورها "الجبرتي" تكشف عن زيف إدعاء نابليون الذي تضمنه منشوره الأول الذي جاء من منطلق احترام الإسلام والمسلمين واحترام نبيه ، ومن هذه الإشارات يبدو محاولة تزييف وعى الناس كما أدركه "الجبرتي" ، والواقع أن حملة نابليون جاءت لصالح التجار الفرنسيين الذين استعانوا بالقنصل الفرنسي من ظلم المماليك .

لقد تعجب "الجبرتي" من مضمون المنشور ومتناقضاته مع العقيدة المسيحية ، كما أن "الجبرتي " أغضبه التعدي على الأزهر وكشف كذب إدعاء نابليون الذي زعم أنه جاء ليخلص الناس من ظلم المماليك ، فكان هو أظلم منهم جميعاً ، ويبدو ذلك من موقف " كليبر" بعد أن سيطر على الثورة الثانية للقاهرة ، ففرض الغرامات و استبد بها على التجار ، ثم بدأ في تصفية قيادة الثوار ، واتخذ موقف الإرهاب وتصفية زعماء الثورة ، وهو ما فعله مع البشتيلى زعيم ثوار بولاق الذي طلب من أتباعه ضربه بالعصي إلى أن يموت ففعلوا .

الحراك الفزعى :

الواقع أن كتابات "الجبرتي أسهمت في وصف مواقف الفزع الذي أصاب الناس من العنف الذي أفرط فيه الفرنسيون ، وكانت بدايته بعد أيام من نزولهم القاهرة ، ويؤكد مما لا يدع مجالاً للشك سلوك الناس في مواقف الفزع بشكل عام ، وأفاض من ملاحظاته الميدانية فيما أصاب الذين نزعوا إلى الهرب من توترات نفسية ، فلم يدر الجميع أي جهة يسلكون وإلى اي طريق يذهبون ، وأي مكان فيه يستقرون ، فتلاحقوا وتسابقوا وخرجوا من كل حدب يتسللون ، وكان أغلبهم من الفقراء الذين حملوا أمتعتهم على أكتافهم ، وتبعتهم الزوجة تحمل الأطفال ، لقد كان هذا الوصف هو امتداد ، ولقد عزت الدواب حينئذ ، فأصبح للحمير والبغال سوق سوداء فبيع الحمار الأعرج أو البغل الضعيف بأضعاف

ثمنه . ومن استطاع أن يقتنى ما يركبه من دواب أركب زوجته أو ابنته ومشى هو على اقدامه ، ثم يصف النساء وهن حاسرات الرأس يحملن أطفالهم على أكتافهن ويسرن مولولات ، منتحبات في ظلمة الليل ، وهكذا يتناول "الجبرتي" ليلة الهروب . وكأنه يعيش مع الناس ويعانى معهم ما يعانون.

ويتناول مصير هذا الحشد من الهاربين .. " إذ بمجرد خروجهم من أبواب المدينة وتوسطهم الصحراء يتلقفهم العربان والفلاحون ، فينهبون متاعهم ويجردونهم من لباسهم ، بحيث لم يتركوا لما صادفوه حتى ما يستر به عورته ، أو يسد رمقه" ، ولكي يعمق الجبرتي وصفه يقول " إن ما نهبه الأعراب كان شيئاً يفوق الوصف ، وأن مجموع ما خرج من القاهرة من أموال وذخائر تلك الليلة كان أضعاف ما بقى فيها ".

كذلك تعرض الكثير من الهاربين للقتل حين أبدوا مقاومة للعربان ، فحاولوا الدفاع عن أنفسهم .. وتعرض النساء لهتك أعراضهن وسلب ثيابهن وفيهن كرائم العائلات ، أو كما وصفهن "الخوندات والأعيان " ، والواقع أن الفرنسيين جالوا وصالوا في القمع بالإرهاب في أحياء المدينة إلى أن وصلوا إلى القلعة والمناطق المرتفعة من سفوح القاهرة وطردوا السكان من منازلهم بهدف تحصين هذه المناطق ، وهكذا أخرجوا من منازلهم ونزلوا المدينة يبحثون عن مسكن ، كما هدم الفرنسيون في سبيل ذلك الأبنية الكثيرة العالية ، كما هدمت المساجد . (الجبرتي : ص ٣٥٩) .

ويمكن القول أن روح الجماعة المعنوية في هذه الأزمات الحراكية قد تعرضت لهزات عنيفة، إذ ليس من شك أن ما يقوى هذه الروح المعنوية هو غلبة المشاعر الإيجابية وتعطل السلبية منها ، ولعلماء النفس تفسيرات عديدة تتضمن ظاهرة انحلال الجماعات بتأثير الذعر الذي يتملكها ، كما ينتشر الذعر بسرعة عن طريق العدوى الانفعالية.

مازال في الإمكان إثارة وصف "الجبرتي" في تاريخه لأحداث منطقة

الأزبكيـة خاصـة وانـه كـان أحـد سـكانها وشـهودها ، وهـو مـا يكمـن في كلماته التي يحيطها بتعبيرات مأساوية بقوله:" انهدم جميع ما هنالك من الدور والمباني العظيمة والقصور المطلة على البركة " الأزبكية " ، واحترقت جميع البيوت التي عند المفارق بقرب جامع كندخانه إلى رصيف الخشاب والمنطقة المعروفة بالساكت بأجمعها إلى الرحبة المقابلة لبيت الألفي مقر سكن ساري عسكر الفرنساوية ، وكذلك خطة الفوالة بأسرها ، وكذلك خطة الرويعي ، وما في ضمن ذلك من البيوت ، إلى حارة النصارى ، وصارت كلها تلال وخراب كأنها لم تكن مغنى صبابات ولا موطن أنس ونزهات ، وجنت عليها أيدي الزمان ، وطوارق الحدثان ، حتى تبدلت محاسنها واقفرت مساكنها ".

نخرج من الوصف السابق إلى ثلاث نقاط :

الأولى : يشير فيها ما كانت عليه الأزبكية كمتنزه والترفيه فيها بالمغاني فكانت موطن أنس.

الثانية : تشير إلى المستوى الطبقي لسكان الأزبكية .

الثالثة : المتغير الذي أحدثه التدمير في نواحي الأزبكية من خرائب وتدمير.

ويصف عودته إلى القاهرة بحثاً عن بيته في الأزبكية وكأنه ينعى المكان بقوله "رجعت إلى القاهرة " واضطررت أبحث عن منزل آوى إليه في ميدان الأزبكية بدلاً من البيت الذي كنت أسكنه (منزل الجبرتي) والتهمته النيران ، وقد لاحظت أن الحصار أضر بالقاهرة أكثر مما كنت أتصور ، فقد عم الخراب أحياء بأكملها وتمثل لنا شبحه المخيف في الأزبكية ، وأثرت في نفسي صورته المفزعة ، والناس في الأمصار لا تخطو خطوة إلا على كثبان من الخرائب والأتربة ، وكانت رائحة العفونة تنبعث من الرمم المدفونة تحت الردم ، وزاد هذا المنظر فظاعة أن الجنود

كانوا ينبشون الجثث من تحت الأنقاض والخرائب ، فكلما أظهروا جثة زاد المنظر فظاعة .

بعد هذا التصوير الدرامي لما آلت إليه القاهرة بعد الثورة أصبحت مناقشة أسلوب قيادة "كليبر" تقربنا من استعراضه للقوى ، وفرض الهيمنة ، واستغلال انتصاره بفرض الضرائب كنوع من أنواع العنف المستتر ضد سكان المدينة دون استثناء ، ولقد وصل التمادي بهذه الضرائب على جميع سكان المدينة بمن فيهم أصحاب الحرف والصناعات والتجار وباقي الحرف حتى الحواة والقرداتية .

لقد أدت هذه الضرائب إلى تحول في البناء الاقتصادي وتدنى البناء الاجتماعي لكبار التجار والأثرياء ، وهو ما أدى إلى اختلال التوازن الكافي في البناء الطبقي في المدينة ، ولعل أوضح مخاطر ما أصاب الأثرياء من التجار من هذه الضرائب أن أهدرت ثرواتهم وما يمتلكون من رأس مال ، فخرج كثير من الناس عن أموالهم وباعوا متاعهم ، وتعرض كثير منهم إلى السجن ، وهاجر من استطاع الفرار من الظلم والاضطهاد .

لقد زاد الفرنسيون في مهاجمة الدور ، وجرجرة النساء حتى نساء الأكابر ، واحتجاز رهائن من الرجال والنساء لحين تسليم المطلوب القبض عليه وسداد ما عليه من غرامة ، ولكن حين يفشل في الوصول إليه تحول الغرامة على أبناء جنسه وأهل حرفته ، لقد أدى طغيان الرجل وظلمه إلى قتله على يد "سليمان الحلبي" بإيعاز من العثمانيين. (الرافعي:ص ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٥) ومع ذلك لم ينته الصراع مع الحملة الفرنسية إلى أن خرجت من البلاد .

وبعد خروج الاحتلال الفرنسي من مصر ، وتولى "محمد على" زمام الحكم بدأ الاهتمام بالتغيير الطبوغرافى في أرض المدينة بردم البرك والمستنقعات ، وإزالة التلال ، وإعادة تخطيطها على أسس علمية ، ومن بعده جاء" إسماعيل باشا " ليستكمل هذا الردم ، ويضع ملامح عمرانية

جديدة على النمط الفرنسي ، فكانت حديقة الأزبكية تماثل في تصميمها حديقة لوكسمبرج في فرنسا ، كما أنشأ دار الأوبرا ومسرح على النمط الفرنسي في نفس الوقت قام بإزالة ترب المناصرة والأزبكية ، وفتح الشوارع الرئيسية التي تصب في هذا الميدان ، وهو ما أدى إلى التوسع في فتح نماذج متطورة من المقاهي حول الميدان بجانب الحانات والمطاعم .

من المقاهي والملاهي إلى المسرح الأوبرالى :

الواقع أن التحول الترفيهي في ميدان الأزبكية له تاريخه في وصف الجبرتي ، فوصف المقاهي والملاهي حول بركة الأزبكية بأنها المكان الذي يتوجه إليه الناس ليشاهدوا الملاعيب التي يلعبها جماعة بقصد التسلي ، ولمزيد من الإيضاح عنده يصف هذه الملاهي بأنها أبنية لها خصوصيتها يتردد عليها النساء والرجال للهو والخلاعة ، وجعلوا على كل من يدخله قدرا مخصوصا يدفعه أو يكون مأذونا وبيده ورقة (تذكره) . (الجبرتي: ج ٣ ص ١٧٩ - ج ٣ ص ٣٤٩)

بيد أن هذا الوصف من اللحظة الأولى يفسر الواقع الذي فرضه الفرنسيون على هذه المنطقة في وجودهم بعد أن اتخذوا قصور الأزبكية مقرا لقيادتهم ، وأزاحوا سكانه واحلوا جماعات فرنسية في نفس المكان ، ومن الطبيعي أن يزحف الفرنجة إلى هذه المنطقة بمشروعاتهم الترفيهية من مقاهي ومطاعم وحانات وخمارات تتمشى مع ثقافة الرواد الأجانب ومتطلباتهم .

وللوصول إلى جوهر الدور الذي لعبته مقاهي القاهرة في أحيائها وشوارعها يمكن وضعها في سياق التاريخ الاجتماعي للمكان ، وللإنصاف كان من أهم الباحثين لمقاهي القاهرة "ادوارد وليم لين" ضمن بحثه بعنوان : " المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم " وقد احصي عدد المقاهي في القاهرة فقدرها بألف في وقت كان يبلغ عدد سكانها حوالي ٣٠٠ ألف

نسمة .

وفى ضوء هذه التقديرات افترض أن نصف عدد السكان من النساء ، فيكون عدد الرجال ١٥٠ ألف رجل إذن هناك على وجه التقريب ألف مقهى.

ولكن إذا أخذنا وصف " لين " على عموميته فلا نستطيع تحديد التوزيع الايكولوجي للمقاهي على أحياء المدينة ولكن مؤشرات هذا التوزيع في خطط "على باشا مبارك " إذ قام بتوزيع المقاهي بجانب الخمارات والبؤر على أحياء الأزبكية وبولاق وعابدين والسيدة زينب والخليفة ومصر العتيقة وباب الشعرية وطولون والجمالية والدرب الأحمر.(مبارك : ص ٢٣)

الواقع أن معظم هذه الأحياء باستثناء – الأزبكية – كان يسكنها أرباب الصناعات والحرف ومعظم الطبقات الدنيا في المجتمع ، وكانت المقاهي بالنسبة لهم تحقق لهم أهدافا ترويحية واجتماعية واقتصادية ، كما حظيت المقهى في دراسة "لين" بوصفها لمكان صغير لا توجد به أي معالم للزينة ، وبه عدة مصاطب مصنوعة من الحجر تغطي بالحصر ، ومكان لصنع القهوة وتجهيز الشبك "الشيشة"، وكانت الحركة دائبة بين المقاهي والدكاكين ، من خلال عمال من العبيد الزنوج . (لين : ص ٤٣)

الملاحظ باننا لا نستطيع أن ننظر للمقاهي باعتبارها مستقلة وقائمة بذاتها بل الشواهد تؤكد مسالة العلاقة بينها وبين مختلف فئات المجتمع .

وفى جميع الحالات كان أصحاب المقاهي يبحثون عن وسائل لجذب الرواد وما يتلاءم مع ثقافة هؤلاء ، فكان البعض منها يسمح للقرداتية باستعراض رقص القرود على الرق ، وآخر يسمح باستعراض حركات الثعابين على انغام المزمار ، كما كان هناك من يسمح بعرض الحواة وجلوس قارئ الكف مع الزبائن ، وحينما نقترب خُطوة أبعد من هؤلاء نجد المسافة قد اقتربت من فن استعراض الرقص ، وكان عرضه قاصرا على الغوازي بمصاحبة الغناء والموسيقي ، وعندما طردهن" محمد على"

حل محلهن الراقصون المتشبهون بالنساء .

ومن الطبيعي أن يتضمن تاريخ المقاهي دور الرواة من العازفين علي الربابة ، ويتباين قبولهم حسب سير البطولات التي تجد استحسانا عند بعض العامة ، وهؤلاء لديهم براعة في العزف علي الربابة وتصوير أحداث الأبطال بأسلوب روائي ، فمنهم من يطلق عليه (أبو زيد) نسبة إلى سيرة أبو زيد الهلالي ، وإذا ما وضعنا هؤلاء بالنسبة لعدد المترددين منهم علي مقاهي القاهرة أحصاهم "وليم لين" بحوالي الخمسين علي حد التقريب ، وهؤلاء يقصدون المقاهي في المناسبات الدينية، ويجلس الواحد منهم علي مقعد صغير في أعلي المصطبة المقامة بطول واجهة المقهى ، ويجلس بعض السامعين إلي جانبه ، بينما يجلس البعض الآخر علي مصاطب المنازل في الشارع الضيق و الباقون علي مقاعد من الجريد ، وأكثرهم يدخنون الشبك (الشيشة) ، وهم جميعا يبتهجون بسماع الراوي لقهوة تمثيلية لموضوع القصة ، ومن رواة القصص أيضا فئات تميزون خاصة بـ ((المحدثين)) وهم من حيث العدد ما يقرب من الثلاثين منهم، والمحدثون يقصرون أنفسهم علي رواية سيرة "الظاهر بيبرس" ، أو السيرة الظاهرية ، ومن ثم يسمون الظاهرية ، وفي القاهرة فئات أخري يطلق عليهم عناترة ، أو عنترية بالنسبة لسيرة عنتر بن شداد ، غير أنهم أقل عددا بكثير من الفئتين السابقتين ، وعددهم قد يزيد عن ستة من الرواة (لين: ص ٦٥) ، والواقع أن رواة السيرة كثيرا ما يجدوا ضالتهم في الموالد، حينما يتناولون الأساطير حول الأولياء وكراماتهم ، ويري الأتباع والمريدون أن الكرامة هي فعل خارج العادة كما يصورها الراوي.

وإذا كان الرواة في سيرة الإبطال يصورون " أبو زيد" و"عنتر" و"الظاهر بيبرس" علي أنهم ابطال ، وأن الأولياء لهم كرامات فإن ذلك يعني أن البطولة والكرامة يمثلان نوعا من أنواع الكاريزما كما يدلل عليها "ماكس فيبر" على أن بعض الأشخاص لهم موهبة منفردة أو

مقدرة غير عادية يجعل من أصحابها رموزا متميزة للقوي والتفوق ، وهو ما يثير عواطف الناس وأحيانا حميتهم في المواقف الوطنية ، والواقع أن وازع السيرة تبدو في نتائج الأحداث التي عايشها المجتمع المصري في ظل حكم المماليك والعثمانيين ، كرؤية تعويضية للعامة الذين كانوا يتطلعون إلي التغيير السياسي في مجتمع افتقد فيه العدالة ، واستشرى الظلم فيه ، وتعددت فيه أشكال الفساد ، وأهدرت فيه مبادئ القيم الإنسانية، وفقد فيه الانتماء من خلال شعور التبعية للمماليك والعثمانيين .

لذلك فإن العقل الجمعي صور لنفسه من خلال السيرة صورة البطل ، فصور أبطال السيرة بالشكل الذي يعبر عن البطل ، وأسقط عليها شعوره باستدعاء المنقذ. !!

وعلى الرغم مما يقال عن تنافس المقاهي في جذب الرواد بأساليب تتمشى مع رغباتهم والترويح عنهم ، إلا ان هناك مقاهي كانت تعتمد على ترويح الرواد بأنفسهم ، وكان الشائع أن يلتقي اثنان ويتبادلان القوافي : بمطلع اشمعنى ... فيثيران الحضور بالضحك .

وكان لهؤلاء امسيات يحرص الرواد على حضورها في شكل حلقات مسائية . وليس بالمستغرب أن يكون مقهى " دقدق" على مدخل درب عرب يسار قد اشتهر بدوري الطاولة في شهر رمضان الذي كان يخصص له جائزة من الأدوات المنزلية ، فكانت نساء الحي يتابعن المباريات ويشجعن الأزواج على هذه المسابقات ، وكانت هذه المباريات تمتد بين جمهور المشجعين حتى يبدأ المسحراتي جولته بالمناداة على أطفال الحي ، وكانت بعض هذه المسابقات تنتهي أن يدفع المهزوم ثمن المشروبات من مرطبات العناب والتمر هندي والسوبيا في فترة الصيف ، أو مشروبات الشتاء من القرفة والسحلب والحلبة بجانب القهوة والشاي .

الشيء الذي أود أن أشير إليه أن ما كان يدور بالمقاهي يفسر بعض أشكال التفاعل الاجتماعي بين فئات المجتمع في حدود المكان ، وطبيعة

المرحلة التاريخية ونوعية البناء الاجتماعي والثقافي الذي تعايش فيه مجتمع القاهرة ، والواقع أن بعض المقاهي ارتبطت ارتباطا وثيقا بالشارع والحي ، فكانت مركز اتصال بين سكانه ومؤشر للبناء الطبقي والثقافي في المراحل التاريخية المتعاقبة.

نعود إلى حي المقاهي الذي أشار إليه "مبارك" في خططه ، وهو الأزبكية حيث مسرح الخديوي ، ومسرح الكوميدي فرانسيز ، وهو لم يكن بعيداً عن دار الأوبرا ، وشارع محمد على الذي اشتهر " بالقهوة التجارية " للفرق الموسيقية المصرية ، ومازالت قائمة ، وكانت مقراً لأجيال الفنانين والموسيقيين ، ولهم وكيل يقوم باختيار الفنانين والفنانات للأفراح والمناسبات المختلفة حسب مستوى الأجر .

والواقع أن معظم هذه الفئة يسكنون في دروب وأزقة هذا الشارع ، ويذكر أحد الإخباريين أن فقراء الفنانين كانوا يستاجرون الملابس المستعملة من مكوجي متخصص في إعداد ملابس العرض، بجانب التزين بحلي مقلدة يطلق عليها قشرة السمكة أو الجمل ، وفى درب المنجمة المتفرع من شارع محمد على كان يسكن أغلب المغنيات والراقصات والعازفين.

ولكن أهم ما يميز هذه الفئة التكافل الاجتماعي في حالة التقاعد أو المرض ، وكانت القهوة التجارية بمثابة النقابة التي تتولى تنظيم الإعانات ، ومن الطرائف إلى أشار إليها أحد الإخباريين خمارة المعلم " حسبو " في أول درب المنجمة ، وكانت مخصصة لشرب " العرقي" وكان روادها من ضالة المجتمع ، من اللصوص والنشالين والباعة المتجولين والسعاة ، وكان السائد في كل مساء خروج بعض السكارى يقوده فتوة القهوة ويلقى به في الشارع بعد أن يجرده من كل ما يملك سداد للمشروبات .

وقبل أن نترك شارع محمد على ، تجدر الإشارة إلى مقهى الكتبخانة " دار الكتب " ، وكان من أبرز روادها الشاعر حافظ إبراهيم مدير هذه

الدار، وكان يلتقي فيها بزملائه وزواره ، ومجموعة من الأدباء والشعراء ، وحينما نترك شارع محمد على إلى ميدان العتبة نجد مقهى " متانيان" ملتقى الثوار الذين مهدوا للثورة العرابية والتفوا حول جمال الدين الافغانى . (الطرابيلى: ص ٩٤)

كما يمكن اعتبار قهوة " ريش " التي تاسست عام ١٩١٤ بحكم موقعها بالقرب من مقر "المستر راسل" حكمدار بوليس القاهرة ، ملتقى مراسلي الصحف ووكالات الأنباء ، وفى نفس الوقت كانت ملتقى خلايا النخبة المصرية ، ومن المؤيدين لقيادة سعد زغلول ، واتخذت من بدروم المقهى مطبعة للمنشورات ضد الاستعمار البريطاني ، كما اتخذت ممراً في نفس القهوة للخروج منه لتوزيع المنشورات . (شادي: ص ٢٩) .

لقد كانت بعض المقاهي تشكل منتديات تتلاقى في الأفكار الأدبية الثورية ، فكانت دعوة إلى الوعي ومصدراً لثورة التجديد .

الواقع أن ثورة الوعي أفرزتها أحداث الحملة الفرنسية وصراع القوى بين الوجود الانجليزي والتركي والمملوكي ، لقد هيات هذه العوامل نهضة فكرية شاملة بين علماء الدين ورجال السياسة والأدب والفن ، فمن علماء الدين الشيخ محمد عبده والشيخ محمد رشيد رضا ، وجمال الدين الأفغاني، وفى السياسة مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول ، وفى الأدب محمد المويلحي وعباس العقاد وإبراهيم المازني وتوفيق الحكيم ، وفى الشعر أحمد محرم واحمد شوقي وحافظ إبراهيم وخليل مطران، وفى الزجل عبدالله النديم وبيرم التونسي وبديع خيري وحسين شفيق المصري ومحمود نظيم، وفى الاقتصاد طلعت حرب ، وفى الموسيقى محمد عثمان ، وعبده الحامولي وسلامة حجازي، وأخيراً سيد درويش زعيم المدرسة الموسيقية في هذا الوسط السوسيوتاريخى .

لقد التقى الفكر الإبداعي بالفن الموسيقى المسرحي في ظل تاثيرات اجتماعية للواقع الاجتماعي المصري ، عبر عنها جزئياً من خلال تصوير

الفئات الاجتماعية الطبقية ومواقف الصراعات السياسية التاريخية ، لقد اتخذ من لغة الشعب تصويراً لواقعه ، ويتجسد ذلك في بساطة التشكيل اللغوي لبيرم التونسي وبديع خيري ، والعلاقة الجدلية مع ألحان سيد درويش الذي أعاد إنتاجها بالتصوير الموسيقى الغنائي على المسرح المصري .

وللحقيقة التاريخية ، لم يكن للفن المسرحي المصري مظاهر مستقلة في ظل التبعية المملوكية والعثمانية ، وإذا ما جاز لنا تحديد درجة تبعية الوعي بالفن ، فأول ملاحظة أنه جاء بعد القرن الثامن عشر مع داود حسنى وكامل الخلعى ، ونجيب الريحانى ، وعلى الكسار ، وأولاد عكاشة، ومنيرة المهدية ، وجورج ابيض ، وسيد درويش .

لقد كانت هذه الفرق المسرحية نواة لواقع اجتماعي وسياسي فيما تقدمه من مضامين تعبر فيه عن فئات المجتمع الطبيعية وإسقاطات على ظلم المماليك، والعثمانيين، أي أنها استمدت بنائها الفكري من علة تاريخية وعلاقة المعلول بالعلة، لقد كان الفن المسرحي يتبع قواعد منسقة للتعبير يدركها الفنان كاسلوب اتصال جماهيري، وفي كل الأحوال يستخدم مزيج من التحويرات الذي يصور فيها أبطاله ، وإعادة صياغتها بما يتمشى مع الروح الوطنية.(Coplan:P5) لقد ظهرت هذه الروح لسيد درويش من خلال الأوبرتات المصرية التي عرضها في دار الأوبرا.

وكان من أشهر الأوبرتات المصرية التي تم عرضها في دار الأوبرا ومسرح الأزبكية ولحنها سيد درويش مسرحيته الساخرة " شهر زاد " التي تكشف عن عجرفة وظلم المماليك ، فأوجدت رد فعل عند بقايا اسر المماليك من حضور هذا الحفل، فأثارتهم المسرحية بالاحتجاج، وتوقفت عند معنى هذا أن الأوبريت عبر عن مشاعر مصرية لصورة نظام الحكم العثماني والمملوكي، والاستبداد الذي عايشته على أيديهم، الأوبريت الثاني : كان بعنوان الباروكة ، والثالث بعنوان: العشرة الطيبة.

لقد كانت هذه الأوبرتات بجانب مسرحيات ثمانية أخرى تعبر

عن مواقف اجتماعية لفئات المجتمع ، وكانت معظم المؤلفات والألحان يسرى في لحنها وسداها نبض أصيل يعبر عن ثلاثة محاور أساسية :

أولاً : عطف منفعل على مصير الطوائف الحرفية المنهارة والمقهورة كالسقايين على سبيل المثال.

ثانياً: هجوم ضد شركات الاحتكار الأجنبي في المرافق وجلبها للعمال الأجانب.

ثالثاً: مناهضة حقيقية وصريحة للسلطة كما يراها من قوة الاحتلال ، يواكبها حماس للنهضة الوطنية . (عز الدين : ص ٥٤)

ولكن أهم ما أثار به المجتمع ألحان غنائية حول فيلق العمل المصري ، وفيلق النقل بالجمال الذين سخرتهم القيادة البريطانية لخدمة جيوش المحور في فرنسا وفى العراق ، وهؤلاء جميعاً تعرضوا للسخرة وعقوبات الجلد ، ومات الكثير منهم ، وعاد البعض يحكى قصة السخرة والاغتراب ، فعبر عنهم سيد درويش بالغناء المسرحي :

يا عزيز عيني وانا نفسي اروح بلدي

بلدي يا بلدي والسلطة اخدت ولدى

ومن الأغاني التي وجدت صدى شعبيا في غنائها

سالمة يا سلامة رحنا وجينا بالسلامة

آه يا سالمة يا سلامة

ومن أبرز الأغاني الوطنية التي استلهمها من كلمات مصطفى كامل بلادي بلادي لك حبي وفؤادي ، غناها على خشبة المسرح وغناها معه الشعب

بلادي بلادي لك حبي وفؤادي

مصر يا ست البلاد أنت غايتي والمراد

وعلى كل البلاد كم لنيلك من أيادي

الواضح أن تاريخ تطور المسرح الموسيقى في مصر ارتبط بالحان سيد درويش ، إذ رفض أن تكون الموسيقى المسرحية مجرد الحان لا تربطها بالكلمات اية رابطة ، وابى على المغنى أن يكون مجرد صوت على المسرح دون أن يعبر اللحن عن معنى الكلمات التي يغنيها ، ومن ثم كان يؤلف اللحن الذي يؤدى إلى شئ ابعد وأعمق من مجرد الطرب ، فكانت ألحانه تعبر عن المعاني الوطنية أصدق تعبير ، وقد تصل في بعض الأحيان إلى إعطاء صورة واضحة للأشخاص .

لقد اشتملت مسرحياته استعراضات السقايين ، والسودانية ، والرشايدة ، والشيالين ، والمجانين ، والحشاشين ، والتحفجية ، والشعراء ، والأروام ، والمراكبية ، والموظفين ، وأولاد الذوات ، وفئات العاطلين بالوراثة . والعمال، والصنايعية ، والمغاربة ، وتجار العجم ، والجزارين ، والحمارين ، والباعة على اختلاف طوائفهم ، والصعايدة ، والسياس ، والجرسونات ، والبوهيجية ، والعربجية ، وغيرهم ، وكان يستقى الألحان من أصواتهم في الشوارع والمقاهي والأسواق .(الحفنى: ص ١١) .

وللتاريخ فإنني شاهدت إعادة هذه الاستعراضات في أوائل السبعينات على مسارح دار الأوبرا والجمهورية والبالون ، وكان ابرز ما في هذه المشاهد تفاعل الجمهور مع الأداء المسرحي ، فكانوا يرددون الأغاني مع المطربين متاثرين بالمعاني والألحان ، لم يكن الاستعراض المسرحي تعبيراً عن ألحان قديمة لألفاظ جديدة .. وإنما جاءت معبرة عن عواطف الناس والتذوق الفني الذي يتلاءم وطبيعته .

لقد استمد ألحانه — كما يقول المؤرخ الفني محمود الحفني — من حياة الأزقة والدروب والمسالك الضيقة والضوضاء المختلطة من مجموع أصوات غير متآلفة ، وذلك الصخب المائج من الباعة الجائلين ، ومحترفي الصياح والضجيج من مرتادي المقاهي البلدية ، وما يتجاوب من أصداء الأغاني والأهازيج المرددة في الشوارع والطرقات وحلقات الذكر التي كانت تدور مع شهور السنة في الموالد وحول الأضرحة ، لقد عاش الانتفاضات الشعبية في رفض الاستعمار ، كل هذه العوامل صاغت فناً وفناناً ، غنى له الشعب ومازال يغنى له نشيده الوطني .

بلادي بلادي ** لك حبى وفؤادي.

بركة الرطلي :

لقد أشارت الدراسة التحليلية لميدان الأزبكية إلى التغير الطبوغرافي والاجتماعي في إطار شامل ، ولكن طبيعة الموضوع والأحداث تجعلنا لا نغفل بركة الرطلي بحكم الجوار والأحداث ، وتكمن أهمية بحث طبوغرافيتها الاجتماعية بالحركة الطبيعية للنيل ، والقرار السياسي في تغيير ملامحها وإذا كان الجبرتي قد وصف الأحداث على أرض الأزبكية ، فإن المقريزي قد تناول نفس الأحداث على أرض بركة الرطلي .

وللحقيقة فإن هذه الأحداث شكلت المقاومة الشعبية والثورات التي واجهت الحملة الفرنسية ، وكانت ساحاتها أرض بركة الرطلى وأرض بركة الأزبكية .

وحينما نتناول التعريف ببركة الرطلى نجدها فى وصف" المقريزى " بأنها من جملة أرض الطبالة ، عرفت ببركة الطوابين لصناع الطوب ، كما يقترن اسم الرطلى بصناعة الأرطال الحديد ، وهى معيار الموازين ، أما وصفها بأرض الطبالة فهو منسوب لامرأة تضرب على الطبول اسمها "نسب" أطربت الخليفة الفاطمي المستنصر في مصر حينما انتصرت

جيوشه في العراق على خصمه الخليفة القائم بأمر الله ، فغنت لـه وأطربتـه ، وفى لحظة نشوة الانتصار منحها قطعة أرض عرفت باسمها ، وهـى أرض الطبالـة ، ضـمن أرض البركـة ، وفـى إشـارته لاسـم الفجالـة يكشـف عـن العلاقة بين النيل وتاثيره على المكان الذي أخذ طابعا قرويا لإنتـاج السكان لزراعـة القـرط " الفجـل " ، وكـان اهـم هـذه القـرى الـتي ركـز عليهـا "المقريزي" قرية ابو الريش (المقريزي : ج٣ص١٦٢)

يمكن القول أن الشكلية لهذه الأسماء قد يتم بها التحليل في وصف ما كـان عليـه المكـان ، والتحـول في وجـوده نحـو البدايـة العمرانيـة ، المهـم أن أرض بركة الرطلى كانت مساحتها تزيد عن تسع أفدنة تمتد ما بـين الخليج وجـامع المقـس (اولاد عنـان حاليـا) ، وكـان بموضـع هـذا الجـامع قريـة أم دنين ، التي كانت تشرف على النيل وتذكر المصادر التاريخيـة أن "عمـرو بن العاص" حينما شرع يفاوض المقوقس في شروط تسليم مصر ، خرج من باب الحصن الغربي الذي يعرف بباب الحديد ، وكان مشرفا علـى النيـل ، وركـب زورقـا عـبر النيـل إلى جزيـرة الروضـة علـى الضفة الغربيـة . لقـد كانـت السـمة المميـزة للمكـان هـو ارتبـاطـه بالنيـل ، ولنـا أن نتصور هـذه الأهميـة بموقعـة كمقـس وميـنـاء الأسـطول ومنظـرة الخليفـة مـن أرض بـركـة الرطلى .

ويشـير "المقريـزي" إن المقـس صـفـة لتقسـيم الغنـائم عنـد الفتـوح ، وكـان بجانب جامع المقس من الجهـة البحريـة منظـرة الخليفـة ، وكانـت معدة لنزوله بها عنـد تجهيـز الأسـطول إلى غـزو الفـرنج ، ولم يكـن أمامهـا مبـان موجـودة بالضـفة المقابلـة للجـامع الـتي بهـا الآن سـبيل أم حسـين بـك المعـروف بسـبيل أولاد عنـان (المقريـزى :ص ٢٨٣) وهـو موجـود حتـى الآن كشاهد على تاريخ المكان .

لا ريب أن معرفتنا بالموقع وارتبـاطه بالنيل يقودنا حتما إلى المتغيرات

التي أحدثها النيل من نحت في جانب شاطئ ، وطرح رواسب وطمي على الشاطئ الآخر ، مما أسفر عن مساحة جديدة من الأرض ، وتغير المعالم الطبوغرافية للمكان ، وهى ظاهرة جغرافية للأنهار في مجاريها الدنيا . (شحاتة :ص ٢٣) ويستفاد مما قاله المقريزي في مسالة طرح النهر ، أن النيل كان يمر بميدان باب الحديد ، محطة مصر فشارع غمرة فشارع مهمشة ، ويتجه إلى الشمال الغربي ناحية منية السيرج بشبرا ، لقد كان النيل عند الفتح العربي لمصر عام ٦٤٢ يمر بهذه المنطقة ، وينتقل ببطء إلى اتجاه الغرب ، وبسبب قرب النيل من هذه المنطقة خصوصا في عصر الدولة الفاطمية قرروا أن تصبح هذه المنطقة "منطقة باب الحديد " ميناء القاهرة ، فإذا كان ميناء "مصر القديمة" هو ميناء العواصم الثلاث (الفسطاط ، والعسكر ، والقطائع) ، فان ميناء باب الحديد ببركة الرطلى هو الذي يربط القاهرة الفاطمية بالوجه البحري ، وليس غريبا أن تصبح هذه المنطقة جمارك العاصمة ، ولهذا سميت كلها بالمقس ، والمقس يعني المكوس وهى الجمارك . (الطرابيلى:ص١١٠)

تجدر الإشارة إلى إلقاء الصور على الأحداث والظواهر الاجتماعية ، والعمرانية ، التي تميزت بها بركة الرطلى ، وهى جوهر الدراسة ، ويصفها " المقريزي" : فلما دخل الماء في الخليج ، ودخل في هذه البركة عمل جسر بين البركة والخليج فحكره الناس وبنوا عليه الدور ، ثم تتابعوا في البناء حول البركة حتى لم يصبح بدائرتها خلو ، وظلت المراكب تعبر إليها من الخليج الناصري ، فتدورها تحت البيوت وهى مشحونة بالناس الدين يتظاهرون بأنواع المنكرات وتبرج الفاجرات ، فإذا نضب الماء زرعت البركة بالقرط "الفجل" (مبارك :ج٣ص٢٦٥) ويضيف "المقريزي" في وصف استغلال أرض البركة في زراعة الحشيش الذي تفشى بها ، خاصة في عصر المماليك، ويرجع ذلك لسماح الدولة بزراعتها نظرا لما كان يعود عليها من ضريبة ، وزاد عليه بجانبه زراعة الأفيون . (المقريزي: ج ٢ / ص١٢٦)

حفل الزفاف :

ويذكر البكري في كلامه عن بركة الرطلى والخليج الناصري ظاهرة تنفرد بها بين باقي البرك ويقصد بذلك بركتي الأزبكية والفيل ، هذه الظاهرة تتمثل في الاحتفال بزفاف مياه الخليج على البركة كل عام في أول يوم من شهر توت ، وفيه يجتمع الناس في حشود صاخبة ، ويؤتى شخص على صورة قاضى ويحضروا شاهدين ليعلن زواج الخليج الذكر على البركة " الأنثى "، فيقع في هذه الليلة اللهو والاستهتار والمنكرات ، وتاتى جماعات بأنواع الملاهي والمراكب ويرمون خرق بها نار ، ثم يأكلون حلوى الزلابية التي يباع منها ما يفوق ألف دينار ، وحينما سكن شيخ الإسلام "ابن حجر" على هذه البركة ، ورأى هذه الشائنة الشنيعة أمر بإبطالها (الشـشتاوى : ص٣٣١)

الفرنسيون وأرض بركة الرطلى:

لم يكن ببال قادة المماليك إن أرض بركة الرطلى ستكون ساحة قتال حاسمة في احتلال القاهرة ، على وهم إن المعارك ستكون بحرية بين أسطولهم وأسطول الفرنسيين ، ولذا قرروا وضع سلاسل حديدية بين شاطئي النيل ، تعوق دخولهم إلى القاهرة من خلال نهر النيل ، ولكن المعارك حسمتها بر إمبابة المواجهة لبولاق ، واحترق أسطول المماليك وولوا فرارا ، وعقب هذا الانتصار روج المماليك الشائعات التي تلمست العقيدة الدينية ، وهو بطش الحملة الفرنسية ، وهتك حرماتهم ، خاصة وأن مصر هي ولاية إسلامية في ظل الدولة العثمانية الإسلامية .

والحقيقة إن الشائعة قد حققت أهدافها كوسيلة اتصال في حشد الناس للمقاومة ، ومن المعروف في لغة الاتصال انها وسيلة من وسائل الاتصال الجمعي ، وتكاد أن تكون وراء الحركات الغوغائية ، ومظاهر العنف ، وهى ظاهرة سيكولوجية لآثار التوتر ، وعدم الاستقرار

(denis:135) لقد كانت النزعة الدينية للمقاومة عند المصريين اقوى من الأبعاد السياسية عند المماليك ، ومن ثم أصبحت المقاومة جوهرها الدين وحده ، ولما كانت أرض بركة الرطلى تمثل موقفا استراتجيا عند الفرنسيين لحماية معسكراتهم في أرض بركة الأزبكية ، فقد احتل الفرنسيون قنطرة الليمون، وقلعة سلكوسكى ، واتخذوا من جامع الظاهر حصنا لهم ، وبدأت المعارك الضارية عند باب الحديد ، وهاجم الفرنسيون المنازل ، وأضرموا فيها النيران كما احتلوا قرية أبو الريش ، وهدموا جامع المقس، وأقاموا مكانة طابية ، لقد أسرف الفرنسيون في ارتكاب الفظائع الوحشية لإخماد الثورة .

صحيح أن الثورة في مواجهة الفرنسيين امتدت إلى الفوالة وخط الساكت ، فاحترقت أحياء منها برمتها وتهدمت البيوت العامرة ، ودفن تحت أنقاضها عائلات بأكملها تماما كما حدث في الأزبكية وبولاق ، ويتناول "المقريزي" هذه المأساة بتصويره الدرامي ، ويقول:" أما بركة الرطلى وما حولها من الدور والمتنزهات والبساتين فإنها صارت كلها تلال وفراش وكيمات واتربة ، وقد كانت هذه البركة من اجمل متنزهات مصر قديما وحديثا "— أي في عصره .

ومما تخرب حارة المقس من قبل سوق الخشب إلى باب الحديد ، وجميع ما في ضمن ذلك من الحارات ، فصارت الدور كلها خرائب محترقة يسكب عند مشاهدتها العبرات(مبارك : ج٢ص١٧٤) لاشك أن هذا التصوير للأحداث يؤكد على نقطة جوهرية ، وهى أن التقسيم الجغرافي للمكان لا يعني عزله أو انعزاله عن الأحداث ، بمعنى أن النطاق الجغرافي للمكان ليس انساقا منعزلة في حدودها الجغرافية ، ولكن أنساق جغرافية اجتماعية في النسق الكلى للمدينة.

ويختتم " على باشا مبارك" مسرح الأحداث ببركة الرطلى ، ليسدل

الستار التاريخي عن أحداثها بقرار ردمها من أتربة الكيمان التي كانت حولها ، وأعيد تخطيطها لتعمر بالقصور ، والشوارع والحارات ، وعاد اسمها إلى مصادر إنتاجها الزراعي بالفجل فاصبح المستقر عليه أرض الفجالة . (مبارك : ج٢ص٢٦٥)

وفى عهد عباس الأول تم توقيع اتفاق مع الحكومة "الإنجليزية" لإنشاء خط آخر بين القاهرة والسويس، واستدعى ذلك إنشاء محطة للسكك الحديدية في منطقة باب الحديد ١٨٥٨، ثم قرر إنشاء خط للسكك الحديدية في كوبري الليمون بين منطقتي المطرية والزيتون، ولقد أدت شبكة المواصلات إلى تغيير نمط العمران والسكان فيه هذه المنطقة، التي شملتها الكنائس والمستشفيات والمدارس والفنادق. (الطرابيلى: ص١١٦)

إذا ما حاولنا أن نسحب هذه النتيجة بالذات على بركة الرطلى نجدها ظاهرة بنائية مركبة بين الطبيعة التي فرضت أهميتها على الإنسان، والإنسان الذي فرض سلطانة على الطبيعة .

فبالنسبة للنقطة الأولى نجد أن نهر النيل فرض على المكان هيمنة ، وهو ما أدى إلى قبول التوافق معه في بناء ترسانة بحرية وميناء للأسطول ، وميناء للتجارة بجانب منظرة الخليفة ، ومن ناحية أخرى كان اقتراب النيل من بركة الرطلى مصدرا لتغذيتها بالمياه ، ومجالا للترويح المشروع وغير المشروع ، وفيما سلك النيل طريقة إلى رافده الأصلي كشف عن ستر الأرض التي غمرها ، ومكونات رواسبه التي طرحها ، وتلمس الناس طريقهم نحو عمرانها ، إلا أن بركة الرطلى فقدت أهميتها بعد أن تخلى النيل عن جوارها ، فاصابها الجفاف، فتكيف الناس مع ظروفها المستجدة ، واتجهوا إلى زراعتها بالفجل الذي اشتهرت به أرضها ، وهو النبات الشائع في طعام المصريين .

وبالنسبة للنقطة الثانية، والتي نعنى بها فرض سلطان الإنسان على المكان ، نجد التغيرات الطبوغرافية لبركة الرطلى حملت قرارات سياسية

في محاولات البحث عن تنمية عمرانية بردم البركة، انطلاقا من تصورات تخطيط في التحديث العمراني ، ولقد اكتسب المكان في ظل هذا التخطيط رقيا سكنيا اتجه إليه صفوه المجتمع من المصريين والأجانب .

الخلاصة:

للإجابة عن سؤال الدراسة استعرضنا الأدبيات الأكاديمية للطبوغرافيا الاجتماعية للقاهرة (المدينة العتيقة) في نشأتها ونموها في مراحل تاريخها المتعاقبة ، لقد حاولت الدراسة أن يكون لها اتجاها جديدا يتمشى مع التغيرات التاريخية للمكان والزمان والإنسان ، ولم يكن يتحقق هذا إلا من خلال المؤرخين وأصحاب أعمال الخطط الذين عاصروا تطور وأحداث المدينة ، فأصبحت كتابتهم وشواهدهم زادا معرفيا ، وسندا طبيعيا في دراسة القاهرة .

لقد شغلنا علماء الاجتماع الحضري بمدارسهم المختلفة في دراسة المدن الحديثة من منظور أيكولوجي، والغرض الأساسي منه أن المدينة تنمو في شكل دوائر مركزية حول قلب المدينة Corezone ، ثم المنطقة التجارية ، ثم مناطق التحول Zone of transition وهى المناطق التي يغلب عليها مظاهر التخلف غالبا ، تليها مساكن الطبقة الدنيا ، ثم المنطقة السكنية الخاصة بالطبقة الوسطى ، وأخيرا أطراف المدينة. (تيماشيف :ص٣٢١)

ومع ذلك تعرضت هذه النظرية الأيكولوجية للنقد الشديد وهو ما أدى إلى توجه هذه الدراسات منذ الربع الثاني من القرن العشرين إلى اتجاهات مختلفة، وأصبحت على درجة من التنوع تحتوى على عناصر

ثقافية واقتصادية واجتماعية ، وأيا كان التصور النظري لهذا الاتجاه الذي بالغ في النزعة إلى المكان كظاهرة اقتصادية، إلا أن العوامل السيكولوجية أو الثقافية تأتي بالنسبة لدراسة المدينة موضوعا ثانويا كما كانت، هذه الاتجاهات تصب اهتمامها على مدن حديثة مجردة من الانتساب التاريخي بالمقارنة بالمدن التاريخية.

ومن ثم يختلف الأمر بالنسبة لمدينة القاهرة التي تجاوزت الألف عام كنموذج للمدينة التاريخية التي لها ندرة في موضعها ، لها طابعها الديني والعسكري منذ نشأتها ، وهو ما يجعلنا خارج التحيز الأيكولوجي أو المحاكاة ، وهو خارج الأطر التي رسمتها الأيكولوجية الحضرية لنفسها في نمو المدن .

إن قضية الدراسة هو الحوار بين التغير الطبوغرافى "الفيزيقي" للمكان ، وبين الزمان والإنسان ، وفى ظل هذا الفهم نجد خصائص الظاهرة التاريخية للمدينة تدخل في نطاق الجغرافيا والتاريخ والاجتماع كأساليب تفسيرية لائقة في التحليل ، ومن حق أي باحث أن يختار إطاره النظري، ويبحث في قضاياه بشرط أن يكون هذا الإطار شاملا وكافيا وعلميا وقادرا على متطلبات الموضوع المدروس ، وكذلك من حق أي باحث أن يختار الطريقة التي يراها مناسبة لإجراء بحثه ، فهناك طرق عديدة لذلك ليس لأي منها افضلية على الأخرى ، لقد كشفت الدراسة عن أمور تاريخية في ظروف موقعها وموضعها، ومسرح الأحداث فيها ، والوزن الديموجرافى الاقتصادي ، والبناء الطبقي ، والأحياء التي لها رصيدها في التاريخ الإسلامي ، ومظاهر ثقافية لا تمارس في غير أحيائها ، وباستقراء الواقع التاريخي للمتغيرات الفيزيقية في مدينة القاهرة العتيقة ، والتي كان أبرزها الهيمنة على جبل المقطم، كما أدى ردم البرك إلى تحول في تخطيط الميادين واستحداث شبكة الشوارع ما أدى بالارتقاء بمستوى المكان فيزيقيا واجتماعيا . وكان من أبرز الهيمنة تمهيد مساحات من

هضبة المقطم ، وتطويع مساحات منه لقصر الحكم ، وتحت سطحه شهد ميدانه تحولات من بساتين إلى ساحات للاضطرابات الاجتماعية والمعارك العسكرية .

لقد أكدت الشواهد التاريخية أمور تاريخية في التغيرات الطبوغرافية على أرضها ، هذه التغيرات أدت إلى تغيرات في النمو العمراني التصقت بالظواهر الاجتماعية وجملة من التغيرات السياسية والثقافية ، وفى نهاية الأمر ليست هذه الظواهر سوى حقيقة في بناء المدينة .

وبناء على ذلك لا يمكن النظر إليها على انها وليدة الصدفة ، او أسيرة علم بعينه وإنما ترتبط بمجموعة من العلوم الاجتماعية المترابطة التي تقودنا في تحليل عناصر المكان والزمان ، وبالتالي فإن مفهوم الطبوغرافيا الاجتماعية أصبح على عتبة تحول من المنهج الجغرافي إلى المنهج الكلى للعلوم الاجتماعية ، وهذا التحول لابد ان يبحث في علاقة المدينة في كليتها لتجسيد ظواهرها ، سواء ما كان منها في الماضي إلى امتداد الحاضر ، إن تحليل الواقع للطبوغرافيا الاجتماعية للقاهرة المدينة العتيقة اكد على ذلك أن الإنسان إذا ما هيمن على طبيعة المكان بسلطانه ، شكل عمرانه طبقا لثقافته ، كما أن هذه الثقافة أيضا تشكل وجوده .

ونخلص من هذا كله أن دراستنا لتاريخ القاهرة كمدينة عتيقة هو حوار حول واقعها المتغير المنظور والغير منظور منه، الذي سجلته الأحداث ليبقى في ذاكرتنا القومية، وفى ضوء تصوري للتاريخ الاجتماعي والطبوغرافى أجد من المقبول تماما لمجتمعنا الذي نعيش حاضره أن يوظف تاريخ المكان لترسيخ وحماية الذاكرة الجماعية عن طريق تركيب صورة الماضي المشترك وتثبيت تلاحمه في تكوين هويته.

إن القاهرة بماضيها هي الأثر الظاهر للماضي بموقعه وأحداثه ، وفى قلبها مارس التاريخ تأثيره على حركة الإنسان وافعاله.

إن مهمة التاريخ الأولى في دراسة المدينة هي البحث في الحقائق التي

ينفذ إليها العلماء من أجل تفسير التراث والهوية التي أفرزتها حياة المدينة ، وبشيء من الحذر لابد أن نميز بين التحليل التاريخي المشروع المبنى على الحقائق ، وبين التفسير التاريخي الانتقائي الذي يخدم أيديولوجيات سياسية ، وعند النقطة الأخيرة يكون التاريخ رسميا يتبع السلطة ، ومن ثم يظل مبتسرا مشوها للحقيقة التاريخية ، ولا يصبح التاريخ مصدرا بل نتيجة للخيارات السياسية ، وفى كل الأحوال يظل موقع الأثر هو الشاهد الصادق على التاريخ ، والقيمة الحقيقية التى تمارس تأثيرها في ذاكرة الأمة ، ومن أجل ذلك كانت الدراسة تستلهم تفسيراتها من موقع الأثر بما شملته من التغيرات الطبوغرافية وتاريخ الأحداث الاجتماعية .

مجمل القول أن فهم الطبوغرافيا الاجتماعية لمدينة القاهرة وما آلت إليه ، يضعنا على عتبة جديدة في دراسة المدن التاريخية .

واعتقد أن الدراسة في طابعها الجغرافي والتاريخي والاجتماعي والثقافي أكد على أهمية نموذج تفسيري قد يكون له أهمية في ولوج فرع جديد في علم الاجتماع الحضري وهو خطوة نحو ما يمكن أن نطلق عليه الديموجرافيا الحضرية.

قائمة المراجع

أولا المراجع العربية :

السيد الحسيني: المدينة ، دراسة في علم الاجتماع الحضري ، ١٩٨٠.

الشيخ طه الولي : المدينة في الإسلام ، مقاله منشوره في مجلة الإنماء العربي للعلوم الانسانيه ، نوفمبر ، ١٩٨٣.

إبراهيم أحمد العدوي : الصراع الفكري بين أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث ، بحث منشور في ندوة الجبرتي ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ١٩٧٤.

ابن إياس الحنفى: بدائع الزهور في وقائع الزهور ، فمرانز شتانيرللنشر ، ١٣٠٣هجرية – ١٩٦٣م .

أمين عز الدين: شخصيات ومراحل عمالية ، كتاب الجمهورية ، العدد ١٦ ، ١٩٧٠.

آرثر جولد شميت " الابن ": قاموس تراجم مصر الحديثة، ترجمة وتحقيق عبد الوهاب بكر، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣.

تقي الدين أبى العباس أحمد بن على المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية ، الذخائر ٥١ ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، الجزء الأول

تيماشيف نيقولا : نظرية علم الاجتماع طبيعتها وتطورها، ترجمة محمود عودة وآخرون ، دار المعارف ، القاهرة ،١٩٧٢.

جاد طه: موقف الجبرتي من ثورات القاهرة ، بحث منشور في ندوة الجبرتي ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ١٩٧٤ .

حسن درويش : سيد درويش بين العبقرية والمؤامرات ، دار الأحمدي للنشر، القاهرة ، ٢٠٠٠، الجزء الثاني .

خالد زيادة : الخسيس والنفيس ، الفئات فى المدينة الإسلامية ، الفكر العربى ، العدد ٢٩، بيروت ، ١٩٨٢.

ديموند ستيوارت: القاهرة ، ترجمة يحيى حقي ، مقدمة جمال حمدان ، دار الهلال، بدون تاريخ نشر .

سارة منيمنة : التكوين الوظيفي للمدينة الإسلامية ، مقال في مجلة الفكر العربي ، العدد التاسع والعشرون ، نوفمبر ١٩٨٣.

سعاد ماهر: أهم الآثار الإسلامية التي جاء ذكرها في كتاب الجبرتي عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، بحث منشور فى ندوة الجبرتي الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ١٩٧٤ .

سعاد ماهر: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٧١، الجزء الأول.

سمير عمر ابراهيم: الحياة الاجتماعية في مدينة القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م .

سيد عويس: رسائل إلى الإمام الشافعي دراسة سوسيولوجيه ، دار الشايع للنشر ، القاهرة، ١٩٧٨ ، الطبعة الثانية .

سيد كريم : القاهرة عمرها ٥٠ ألف سنة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠.

سيد هادى خسرو شاهى : أهل البيت في مصر، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة ٢٠٠٤،.

شحاته إبراهيم : القاهرة، مكتبة الأسرة ، القاهرة ، ١٩٩٩

عباس أحمد بن على القلقشندى : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، الطبعة الأميرية وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ٨٢١ هجرية -١٤٨١ م.

عباس الطرابيلى : أحياء القاهرة المحروسة ، الدار المصرية اللبنانية ، ٢٠٠٣ .

عبد الحفيظ على القرنى: مقدمة تاريخ الجبرتي، الجزء الأول ، مطبعة الأنوار المحمدية ، بدون تاريخ نشر .

عبد الجليل الطاهر: مسيرة المجتمع بحث فى نظرية التقدم الاجتماعي ، المكتبة المصرية ، بيروت ، ١٩٦٦.

عبد الواحد وافى: مقدمة ابن خلدون ، الجزء الثاني ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ٢٠٠٦.

---------- عبدالرحمن ابن خلدون ، حياته وأثاره ومظاهر عبقريته، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥.

عبد الرحمن الجبرتى: عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، مطبعة الأنوار المحمدية بالقاهرة ، بدون سنة نشر.

عبد الوهاب بكر : صفحات من تاريخ مصر الاجتماعى ، كلية الاداب جامعة عين شمس ، ١٩٩٩.

على باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر، الهيئة المصرية العامة

للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠، الجزء الأول .

علاء طه رزق : عامة القاهرة فى عصر سلاطين المماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ٢٠٠٣ .

فاروق أحمد مصطفى: الموالد " دراسة للعادات والتقاليد الشعبية فى مصر"، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة، ٢٠٠٤.

قاسم عبده قاسم : دراسات في تاريخ مصر الاجتماعى ، سلاطين المماليك ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩.

محمد رجب النجار: حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي ، عالم المعرفة ، سبتمبر ١٩٨١ .

مصطفى رمضان: مخطوطة من تأليف الجبرتي في ليدن ، بحث منشور في ندوة الجبرتي ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ١٩٧٤ .

محمد الششتاوى: متنزهات القاهرة في العصر المملوكي والعثماني، الآفاق العربية ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٤.

محمد شادى : ٢٤ ساعة فى قلب القاهرة باريس الشرق حورس ، فبراير ، ٢٠٠٧.

محمد ذكى ابراهيم: مراقد أهل البيت فى القاهرة ، مطبوعات ورسائل العشيرة المحمدية ، القاهرة ١٤٢٤ هجرية-٢٠٠٣ م، الطبعة السادسة .

محمود احمد الحفنى: سيد درويش حياته وآثار عبقريته، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، بدون تاريخ نشر .

ميلتون سالتوس: الجغرافيا في أواخر القرن العشرين، المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية، العدد ٢١ ديسمبر، ١٩٨٥.

نهلة أنيس مصطفى: الصراع على السلطة وظاهرة العنف والاغتيالات في عصر دولتي سلاطين المماليك ، بحث منشور في أعمال المؤتمر الدولي للعلوم الاجتماعية ودورها فى مكافحة التطرف فى المجتمعات الاسلاميه ، جامعة الأزهر ، الجزء الأول ، القاهرة ٤-٦ ربيع الأول ١٤١٩ هـ ، ٢٨-٣٠ يونيو ١٩٩٨ .

ثانيا: المراجع الأجنبية:

Coplan,D.: In the time of cannibals, Chicago University press,1994.

Costello .V.F.: Urbanization in the Middle East, N.Y, 1977.

David popenoe: Sociology 4 ed, prentice hall inc, 1980

Denis Mcquail: Social Process Communication, Longman, London, 1972.

Gittler, B,Joseph.: Review of Sociology, John wileyysom,n,y.1957

Karl m. Van meter: Sociological Methodology, black well, London .1994

Mehel Dugan: Fragmentation of the Social Sciences and Recombination of Specialties Around Sociology Blackwell, Oxford, 1994.

Milton Santos: geography in the late twentieth Century: international social science journal unesco 1985.

Peter Gould: Geographical Theories, black well publishers, Oxford, 1996.

الفهـــرســـت

في الطبوغرافيا الاجتماعية

القاهرة

المدينة العتيقة وما آلت إليه

القاهرة المدينة العتيقة وما آلت إليه

أ. د/السيد حنفي عوض

المكتب الجامعي الحديث

الأستاذ الدكتور
السيد حنفى عوض
أستاذ علم الاجتماع
جامعة الزقازيق



المكتب الجامعى الحديث
مساكن سوتير- أمام سيراميكا كليوباترا
عمارة (5) مدخل 2 الأزاريطة - الإسكندريه
تليفاكس : 00203/4865277 - تليفون : 00203/4818707
E-Mail : modernoffice25@yahoo.com